

محمد بن ربيع الغامدي

الفيلم الوثائقي

قصص قصيرة



اشتباكات مع الموروث السردى المحلى والعربى والعالى

الطبعة الثانية

2025

محمد بن ربيع الفهمدي

ألفا ثيممة وثيممة

قصص قصيرة

اشتباكات مع الموروث السردي المحلي والعربي والعالمي

الطبعة الثانية

٢٠٢٥

© محمد بن ربيع الغامدي ، ١٤٤٦ هـ

الغامدي ، محمد بن ربيع
ألف قيمة وثيمة. / محمد بن ربيع الغامدي - ط٢. - الباحة ،
١٤٤٦ هـ

١١٦ ص ٤ .سم

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٨٨٣٤
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٥-٢٨٧٥٠٢

تصميم وتنفيذ الأغلفة الأستاذ مصطفى الدناصوري

طبعة منقحة

الطبعة الثانية ٢٠٢٥ الباحة

الطبعة الأولى ٢٠١٨ الباحة

الإهداء

إلى الجوهرتين الغاليتين

ليان حسن

و

رسيل رائد





سفر حج الجوج





انتضيت سيفي وخرجت مبكرا عن كل يوم، خرجت مبكرا لأن أعدائي قد خرجوا مبكرين أيضا. حشدوا المزيد من الجند، انتشروا مجددا على امتداد السفوح التي حررتها منذ عام، قاماتهم أعلى لكن رؤوسهم أكثر استواء للقطف. كنت سأزلزل الأرض من تحت أقدامهم بصيحة واحدة فقط لكني تراجع، قلت هؤلاء قوم جُبلت رقابهم على السيف. لا يستريح الواحد منهم إلا إذا رأى رأسه الصغيرة تتدحرج بين قدميه، ولولا سيفي لما تركوا لأحد منا ذرة واحدة من الهواء، من الهواء فما بالكم بالطعام والشراب، بل ما بالكم بحريتنا. لو تمكن منا هؤلاء الأوغاد لا تخذونا رقيقا، أو قتلوا رجالنا واستحيوا نساءنا فلا يبقوا على نسل لنا أبدا.

وصلت سفح الموعد الدامي، قلت آخذهم من الأعلى نزولا، أجعل التضاريس تحارب معي، أَدفعهم لمواجهة سيفي وصعود الجبل معا. أخذتهم المفاجأة، التفتوا نحوي فأثقلت الساعة خطوهم. صرخت: إلى الأمام وكررت، كنت مثل أسد كَرَّار أو مثل ساعة مدلهمة أو - في أهون حال - مثل جلود صخر حطَّه السيل من علٍ. تشبثوا بأماكنهم استدرجا لي، حاولوا بذلك تجنب الصعود فقبلت. قبلت خطوتهم تلك وقد ظنوها تكتيكا في صالحهم وما دروا، قبلتها لأن رقابهم مهيأة لسيفي البتار، هويت على أقرب رأس مني ثم ألحقت به ثمانية في طرفة عين. تمترسوا في أماكنهم، تجذروا في عرض السطح، تهيأت رقابهم لسيفي أكثر من ذي قبل فتساقطت رؤوسهم رأسا من بعد رأس.

ما بقي في طول السفح وعرضه سوى روح واحدة تنبض بالحياة هي روحي، روحي أنا فقط، أما هم فقد كانوا جميعهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية. وقفت على قتلاهم خطيبا، تتقلت بين الجثث جثة بعد جثة، سفتهم أحلامهم، رقصت على دمائهم وعلى أشلائهم وحُق لي ذلك. وقفت على

أكبرهم رأساً، قلت له: ذق حمام الموت فما الذي أتى بك؟ جئت تحمل بين جنبيك شراً، تحفّ بك الضغينة، تقود الرعاع من قومك لتسفك دمي وتحتل أرضي. ارتفعت قليلاً حتى أشرفت على أرض المعركة من علٍ، قلت لهم: ها قد روي سيفي من دمكم وما ارتوت قلوبكم مما طلبتم فأخبروا من يأتي على طريقكم أني لهم بالمرصاد.

انحدر بصري من طرف قدمي حتى منتهى أقدام السفح الذي اعتليه، رأيت صديقي توأم روجي يلتمس طريقاً يأخذه إليّ. صديقي السمين هذا كم وددت لو شارك في معارك الشرف التي أخوضها، كم تمنيته أن يكون سانشويانزا الذي رافق سلفي العظيم دون كيخوته دي لامانتشا. كم تمنيت أن يكون تابعا لي مدافعا عن الأيتام والأرامل والضعفاء والمساكين، مقاتلا في سبيلهم. هتفت به من مكاني وهو عند أقدام السفح: توأم روجي! هل أنت قادم نحوي؟ وعندما قال نعم قلت له: إذن وفر على نفسك مشقة الصعود، أنا ساتي إليك فاثبت حيث أنت. نزلت عبر السفح المنحدر حتى استقرت بي قدماي أمام توأم روجي فأخذنا بعضنا بالأحضان.

هناك سرٌّ لا أفهمه يربط بيني وبين صديقي هذا لذلك اعتبرته توأم روجي، هناك مجال مغنطيسي يحتويه ويحتويه، يجذبني إليه بسرعة خاطفه ويجذبه لي بنفس السرعة، قلت ذات يوم أن القانون الذي يحكم علاقتي بهذا الصديق ليس قانون علاقات بشريه بل هو قانون المغناطيس بعينه. أخذت منا الأحضان وقتاً طويلاً، وعندما وقف كل واحد منا على مسافة من الآخر أعطينا للكلمات وقتها الطويل أيضاً. أشاد بالفروسية التي عرفني عليها، امتدح شجاعتي وقدرتي الخارقة على استشراق الأخطار المحدقة بسفوح الجوج، ندد - في الوقت نفسه - بكلام الحاقدين الذين أوهموا الناس أن حروبي ليست الا مع نباتات الجوج الشوكية لا حرباً مع أعداء حقيقيين.



قلت له أن كلام الحاقدين لا قيمة له، وقلت: الحاقدون في زمن سلفي
المرحوم دون كيخوته دي لامانتشا أشاعوا الشائعات نفسها، اعتبروه واهما
يحارب طواحين الهواء بينما هو يحارب أعداء حقيقيين، لم تكن مجرد طواحين
هواء بل كانت شياطين، شياطين ذات أذرع هائلة، شياطين هي مصدر الشر
في الدنيا ومصدره في الآخرة. المرحوم دون كيخوته دي لامانتشا لم يستسلم
ولم يجبن ولم تلن له قناة. تصدى لها، أشرع رماحه في وجهها، هاجمها غير
مصغٍ الى صراخ تابعه سانشوبانزا. كان سانشوبانزا يحذر في أول الأمر،
حذر دون كيخوته دي لامانتشا مرة ومرتين وثلاث، صرخ كما تصرخ الثكلى.
لكن المرحوم دون كيخوته دي لامانتشا أغلق أذنيه تماما، أغلقها ورشق
الشياطين بالرمح. ردت عليه الشياطين فرفعته بأذرعها حتى بلغ عنان السماء،
دارت به، رمته أرضا، رضت عظامه رضًا لكنه لم يموت.

أصغى توأم روحي جيدا، سرّه كثيرا ما سمع وبانت على ملامحه
علامات الرضا. وجدت في ذلك فرصة أنتظرها منذ زمن، أخذت بيده، طففت
به على جثث الأعداء، سعدت به السفح حتى ذروته، أيمنت به وأيسرت
فلما أدركت أنه قد شرب من ماء بطولتي قلت له: كن معي. قال: مثل
سانشوبانزا مع المرحوم دون كيخوته دي لامانتشا؟ قلت له: مثل سانشوبانزا
مع المرحوم دون كيخوته دي لامانتشا. مدّ توأم روحي يده مبايعا، أقسم لي
أن يكون جسدا لي وأقسمت أن أكون روحا له، عاهدني ألا يخون ولا يتخلى
ولا يغيّر الشارة والنشيد وعاهدته ألا أخون ولا أتخلى ولا أغيّر الشارة والنشيد،
صافحني مرة ثانية وصافحته ثم انطلقنا صوب سفح الجوج التالي.

اقترب مني ونحن في طريقنا إلى سفح الجوج التالي، قال مشيدا
بفضلي: لن تنسى لك هذه السفوح حمايتها من الأعداء ومن الشياطين. انحنى
والنقط رأسا من الرؤوس التي طوّح بها سيفي ثم أضاف: كيف كانت السفوح

ستفعل مع هؤلاء لولا سيفك البتار؟ قلت له: انضمامك لي هو نصر كبير وفي الغد سوف يكون السؤال: كيف كانت السفوح ستفعل لولا التحام الروح بالجسد؟ ابتسم جذلان ولم يضيف شيئا. توقفت في منتصف الطريق وأوقفته معي، قلت له: من الآن يا تابعي الأمين سأترك السيف في يدك وأكتفي بالنفخ في جمرِك، تعبت بعد أن تقدمت بي السنّ وجئت نجدة من السماء لي. قلت له ذلك وسلّمته السيف ونحن على أبواب معركة ثانية.

دخلنا السفح التالي وصرخت: إلى الأمام، إلى الأمام يا توأم روحي، ها هم أعداؤك كأن طلعهم رؤوس الشياطين. تقدم توأم روحي وكأنه يمشي على سجاد من أصواف الموهير لا على سفح من سجيل، أوغل في صفوف الأعداء، مال على اليمينه فأفناها، مال على الميسرة حتى أحالها خبرا بعد عين. تكاثروا عليه فصرخت: إلى الأمام. أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم، ضربه بسيوفهم لكنه مرق من بينهم ونفذ كما ينفذ الماء من ضيق الصنبور. صرخت: لكم الموت جميعا. فتزلزلت الأرض تحت أقدامهم. صرخت: تبا لكم يا أعداء السفح. فمادت الأرض من تحتهم. صرخت: تقدم يا جسدي العظيم. فاخترق صفّهم وشطّر عزمهم، صرخت: أضرب يا توأم روحي. صال وجال فما كفّ حتى جندلهم جميعا، جندلهم فتراكموا صرعى تحت قدميه بعد أن سقاهم بكف الفارس كأس الحُمام.

وقفت ووقف توأم روحي وقفة منتصر في سفح الأشلاء. جلس فخشيت أن يتسرب إليه الكسل فقلت له: انهض. نهض متثاقلا فركلته. ركلت مؤخرته السمينة وأفهمته بأن الفرسان في حرب لا تتشاءب، لا تتثنى أرجلهم ولا يستريحون لحظة. هكذا كان سلفي العظيم دون كيخوته دي لامانتشا وتابعه الأمين سانشوبانزا. أمسكته من كتفيه وبرمتهما حتى عاد بوجهه إلى الجهة المقابلة، طلبته أن يتأمل السفوح الممتدة بلا نهاية وأن يتمعن جيدا في



حشود نباتات الجوج، جوج الشياطين التي تتربص بنا ريب المنون. سرح بنظره بعيدا وأظنه كان يحصي شيئا لكنه قد استوعب حجم العدو وأدرك حجم المسؤولية. سبقني هذه المرة إلى أرض المعركة فمشى ومشيت معه على وقع مارش عسكري.

توقفنا في الحصن الذي اعترض طريقنا، طلبنا من القهوجي أن يفتح لنا لندخل، دخلنا وطلبنا قهوتنا. قلت وتابعي الأمين يسمع: لا تثريب على الفارس أن ينال قسطا من الراحة داخل القلعة فإن القلعة هي عرين الأسد ولا يؤاخذ الأسد إن نال قسطا من الراحة في عرينه. طلب توأم روحي قهوة بالسكر فنهرته. نظر نحوي كأنما يسأل فقلت له: السكر للنساء والأطفال فإياك أن تتسى ذلك. اقتربت منه وأفهمته أن قهوة الفارس تكون مرة، أفهمته بذلك وطلبت أنا بدوري قهوة مرة. مكثنا بعض الوقت نحتسي قهوتنا، تجاذبنا أطراف الحديث، قررنا ترك المكان بعد أن رويت لتابعي الأمين جوانب أخرى من سيرة سلفي العظيم دون كيخوته دي لامانتشا وتابعه الأمين سانشوبانزا. لحق بنا ولما نستلم باب الخروج بعد، صرخ من ورائنا: الحساب يا حضرات. التفتنا لمصدر الصوت وإذا به أمر القلعة، تجاهلنا الأمر وعدنا نستأنف السير في طريق الخروج. نكز فراشة ظهري، طلب الحساب مرة ثانية. التفتنا وتوقفنا، سألناه عن أي حساب يتحدث. قال: حساب القهوة التي شربتم الآن، أضاف بفجاجة: أم تراه مقهى أبيكم أورتكم إياه ولم يترك لي خبرا. أدخل توأم روحي يده في جيبه، أوشك أن يدفع للأمر مالا. نهرته فلما حاججني قلت له لا تتحدث في أمر لا تعرفه. دفعته للوراء قليلا فاستشاط غضبا. قال لي أنت عند دخولنا قلت هذا قهوجي. أقسم أنه سمع ذلك من فمي. اضطررت لممارسة دوري قائدا للحرب، قلت له: أنا وريث العظيم دون

كيخوته دي لامانتشا، أضفت: وأنت وريث تابعه الأمين سانشوبانزا، ثم قلت: بهاتين الصفتين أمرك بالوقوف على ساق واحدة حتى صدور أمر آخر. نفذ توأم روحي ووقف مثل الفلامنجو على ساق واحدة، نفذ الأمر لأنه يعي تماما أنني قائد حرب ولست حامل أوهام. تراجع أمر القلعة للخلف، استمر يتراجع حتى أخلى لنا المكان. لحقته بأوامري قبل أن يغيب، قلت له: لن أدع إهانتك لي تمرّ، أضفت: سأصمم حزمة نافذة من العقوبات أقترحها على رؤسائك المباشرين وستعرف حينها حجم القائد الذي تواضع ليحتسي في قلعتك قهوة مرّة. أشفقت كثيرا على توأم روحي في الوقت الذي رأيت فيه غبار الهزيمة يتبع أمر القلعة العاق. قلت لنفسي تحقق الهدف وما دام قد تحقق فإن طائر الفلامنجو البريء ينتظر مني مكرمة، أمرت تابعي الأمين أن يضع ساقه المرفوعة وأن يرفع الموضوعة ليناوب بينهما، وبعد دقائق قليلة أصدرت أمرا بالعفو عنه.

أردت أن أسري عن تابعي الأمين قليلا، أعوضه بعضا من التعب الذي لحق به في وضع الفلامنجو. قلت له أن سلفي العظيم دون كيوخوته دي لامانتشا قد ضربه رعاة الأغنام ضربا مبرحا. ضربه حتى سالت دماؤه، كسروا جزءا من أسنانه ومع ذلك انتصر عليهم وأباد أغنامهم. سألني تابعي الأمين عن حقيقة تلك المعركة، توقف طويلا عند الأغنام. قلت له كانت تسكنها الشياطين ويختبئ في أصوافها الأعداء. أدركت أن تابعي الأمين لم يتفهم أبعاد ذلك، رأيت الجهل مثل قناع يحجب وجهه. نفذت إلى منابت بصيرته ونفخت فيها حتى توقدت مثل نار في ليلة ماطرة. سمع كلامي كاملا فقال لي وقد استوعب الدرس: حقا فإن العدو لا يقبل عليك بوجهه أبدا، العدو يختبئ خلف شيء ما، يأتيك وعلى وجهه قناع.

وصلنا إلى مشارف سفح الجوج. عرفنا أننا أمام معركة ثالثة. قلت له: فلنجلس القرفصاء خلف هذا السياج الحجري، دعنا نراقب الجوج الماكر من هنا، من خلف هذا الحائط وإياك أن تحدث أدنى جلبة. جلسنا خلف الحائط الحجري، حبسنا أنفاسنا وشرعنا نراقب. همست في أذنه قائلاً: تأمل كيف يمرح حقل الجوج مع الهواء. قال: نعم. قلت: يتظاهر بشيء من الرومانسية ويتصنّع اللطف. قال: نعم. قلت: يختبئ خلف ذلك المظهر اللطيف الناعم. قال: نعم. قلت: يبدو في ظاهره نباتا شوكيا تألفه السفوح عادة. قال: نعم. قلت: ويختبئ الأعداء في طلعه وفي سوقه. قال: نعم. قلت: مظهره وديع لكن في أثوابه عدو لدود. قال: نعم. ولكثرة كلمة نعم التي رددتها توأم روحي قلت له: اسمعني جيداً يا توأم روحي. قال: نعم. قلت له: لن أناديك بعد اليوم إلا تابعي الأمين بدلاً من توأم روحي: قال: نعم.

أخذنا وضع الاستعداد تأهباً للمعركة. أقسمنا يمين الولاء للسفوح، تحركنا بشكل خاطف هو نحو الأعلى وأنا نحو الأسفل. هو سمين ثقيل يناسبه أن ينحدر من أعلى، أنا نحيل خفيف يناسبني أن أصعد للأعلى، هو سيُعمل سيفه في قطع الرؤوس ويناسبه الاندفاع من علٍ، أنا سأشحذ همته فقط ويناسبني الانطلاق من أسفل، هكذا جاءت أدوارنا، وعلى حُطى هذه الخريطة انطلقنا. صرخت في أدنى السفوح: المجد للسفوح، صرخت ثانية: الموت للجوج. التقت الجوج نحوي وتحرك جمعهم. فاجأهم سيف تابعي الأمين، أربكهم صوته وهو يحزّ الرقاب من خلفهم، استداروا تجاهه. صرخت: أضرب، أضرب، أضرب يا تابعي الأمين. تحركت بسرعة إلى أقصى اليمين. صرخت: الموت للمعتدي. تحركت إلى أقصى اليسار. صرخت: البقاء للسفوح. تحرك تابعي الأمين بشكل معاكس، تحرك لليسار أولاً ثم لليمين،

أفنى ميمنة الجوج ثم شنت الميسرة، اخترق القلب ومكعب الإسناد. أصبحوا صرعى في طول السفح وعرضه كأنهم أعجاز نخل خاوية.

اقترحت على تابعي الأمين أن نمشي على خطوة الاوژة، رغبت في إظهار حالة من الكبرياء تسر الصديق وتغيض العدو، حددت لها عشرين مترا على ما فيها من جهد. مشينا سويا، خيل إلينا لفرط الاتقان أن الرياح كانت تدق الطبول معنا، وعندما أتمنا مارش النصر العظيم قررت مكافأة تابعي الأمين فإن القادة يتلمسون حاجة أتباعهم للمكافأة والتكريم. فرح تابعي عندما عرضت عليه كوبا من القهوة، سأل أين؟ قلت: في القلعة، وأضفت: لك أن تشربه بالسكر في هذه المرة فقد أنجزت معركة كبيرة. اقترحت عليه أن نسير في مارش عسكري، صرخت: للأمام سر.

قطعنا مئات الأمتار ثم صرخت: إلى اليمين دُرْ ثم صرخت: إلى الأمام سر، ومشينا مئات أخرى من الأمتار. انعطفنا بعدها لليساار فصرخت: إلى اليسار در. طلبت من فرقة موسيقى القرب أن تستلم العزف، وجهت الفرقة إلى نشيد المجد للسفوح. اشتعل الطريق إلى القلعة نشيدا، غنت معنا الجبال والسفوح والأطيار فلما أقبلنا على باب القلعة وجدناه ينفتح رويدا رويدا إجلالا لي ولتابعي الأمين.

تخلل سكرُ القهوة دم تابعي الأمين، سعد مثل دخان بخور في معبد، مازح خلایا رأسه الصغيرة فلما اعتدل مزاجه طرح عليّ اقتراحا. هممت أن أصفعه فالتابع يستمع وينفذ فقط لكني تريتت، تحليت بالصبر، قلت له اقترح. نقل مقعده حتى التصق بمقعدي، اقترب هو أيضا حتى شممت رائحة شمع أذنيه، حك قفاه ومط شفتيه ثم قال: ما رأيك لو أضفنا ثالثا؟ صعقتني هذا التابع الأمين بما قال، زلزل الأرض من تحت قدمي، أدهشني بالثالث الذي اقترح فعددت الدهشة لساني، ضعفت لأول مرة في تاريخي النضالي وعجزت

عن الرد. نقل مقعده حتى ابتعد عني، تحدث معي بصوت خفيض دون أن ينظر في وجهي. تحدث عن شريك ثالث، أطول قامة مني ومنه وأحد نظرا. عاد تابعي ينظر إلى وجهي من تحت جفنين ساذجين، يرسم ابتسامة عفوية تقتر عن ثغر مثل مرمى عظام، قال بصدق: هو يرى وأنت تأمر وأنا أنفذ.

قلت له وقد استبدت بي نوبة اعتداد: هناك محاذير تغيب عن فطنة الجندي عادة لا يراها إلا الجنرال. ولأن الجنرال يرى ما لا يراه الجند فقد قررت بدلا من شريك ثالث أن أتقدم لخطبة زرقاء اليمامة.

(النبات المعروف باسم *Echinops humilis* يسمونه في قريتي نبات الجوج)



أجربة التأويل



أصر أن يأخذني معه، ومازال يزين لي ذلك حتى قبلت. قبلت الذهاب معه إلى سوق البلد رغما عن أنفي، حاولت توضيح أمري لكنه أصر. قلت له لا أتسوق لغير حاجة. قال تفرّج ولا تشتري. أضفت: ولا أتفرج على سلع لا تعينني، قال جاملني يا صديقي فجاملته.

أخرجني من بين أفراد عائلتي في حمارة القيط. أخذ بيدي إلى سوق البلد المزدهم بالناس ومكعبات الرطوبة وضجيج المارة وغازات العوادم الخائقة. أقسم علي ألا نذهب إلا في سيارته زيادة في الترغيب. أقسم ووعدني بمفاجأة سارة اكتشفت لا حقا أنها مشروب الكركديه. جاء معه بحافظة بلاستيكية ملئت شراب كركديه، هو يحبه حبا جما وأنا لا أكرهه ولا أتفاني في محبة هذا المشروب.

دخلنا سوق البلد مع الداخلين، دخلناه من بوابته الجنوبية تبعا لموقف السيارات الذي آوى سيارتنا. وقف في الثلث الأول من الرصيف. أشار بيده إلى أكثر من عشرين بائعا وبائعة. قال هؤلاء من حجاج روسيا. استغربت فقلت وما أدراك؟ قال هذا مكانهم في كل عام. سألت: وما هذه السلع التي بين أيديهم؟ قال: سنفحص ما معهم سلعة بعد سلعة. التقت نحوي وضحك. هجاني هجاء مقذعا ليشعرنني بخسارتي التي أتجرعها بسبب مكوثي في البيت، قلت: ربك كريم.

وضّح لي أمر هؤلاء الحجاج. قال يأتون من روسيا ومعهم ما خف حمله من منتجات بلادهم، يبيعونها هنا لتغطي بعض تكاليفهم وفي هذه المدينة من يشتري. مدينة جدة مدينة كل الناس، مدينة من يبيع ومدينة من يشتري.

استدار نحو الغرب وأشار بيده، قال هناك تجار شَحْتَكْ بَحْتَكْ. أعاد كلمة شَحْتَكْ بَحْتَكْ وسأل: هل تعرف معنى شَحْتَكْ بَحْتَكْ؟ قلت لا، ثم أضفت

ما معنى شَحْتَكْ بَحْتَكْ؟ قال ستعرف هناك، وأضاف معاتباً: ما ينبغي عليك أن تعرفه الآن هو أنك تخسر الكثير من بقائك في بيتك كأنك قطعة أثاث. دافعت عن نفسي بشراسة، قلت له أرني ماذا أضاف لك الخروج من البيت؟ لست إماما في مسجد، ولا مؤذنا في منارة، ولا شيخا في قبيلة، ولا ضابطا في كتيبة، ولا تاجرا في سوق. وما رأيك يوما شاعرا أو قاصا أو مسرحيا أو صحافيا، وما كنت يوما من أهل الطب أو الهندسة أو الفيزياء أو الكيمياء فماذا كسبت؟

عندما شرعت في عدّ مكاسبي البيتية انفرط ضاحكا بينما أخذتنا أقدامنا إلى أول الحجاج الروس. توقفنا أمام بضاعته، كان يبيع مناظير مقرّبة وكاميرات ومناظير رؤية ليلية. قال صديقي: خذ هذا المنظار، استخدمه في متابعة سباقات الخيل، ابتسمت وقلت له لا.

طلبت بعدها الانتقال للبائع الثاني فانتقلنا. وجدنا عنده الكافيار، سألتناه عن سعره. التقطت علبة ملئت معجوناً أسود، قلت لصديقي: لعله الكافيار، أكسير الحياة الذي يحلم به المرضى والمتعبون كما يحلم به الأصحاء والمترفون؟ قال نعم. قالها وهو يلتقط علبة أخرى فيها معجون ذهبي. اشترى علبتين سوداء وذهبية، قال الذهبية أعمق أثرا، قلت لكن شكلهما مفرز كأن فسادا قد اعتراهما.

انتقلت بنا أقدامنا إلى بائعة كبيرة في السن، رأت أعيننا عندها منسوجات في غاية الجمال والدقة. اشترينا من عندها ملابس لا نحتاجها، اشترينا ثلاث قبعات صغيرة وعدة أمتار من أقمشة قطنية متينة وناعمة.

رأينا بنادق هوائية ولألعاب أطفال وأدوات مطبخ، رأينا مفارش ذات نقوش عجيبة، رأيت مذياعا روسيا أعادني لستينات القرن الماضي. حاولت مداعبة صديقي، قلت لو قمت الآن بتشغيل هذا المذياع فسوف تجد الرفيق

خروتشوف يلقي كلمة بلاده في هيئة الأمم المتحدة ففاجأني صديقي بشراء الراديو فعلا. أدركت أن حمولة صديقي قد زادت عن يديه، قلت أساعدك؟ قال: لا، ولكن أكمل أنت جولتك وهات ما معك.

أخذ ما معي وانصرف إلى مواقف السيارات حيث سيارته بينما أكملت أنا جولتي، أتجول ببطء عسى أن يلحق بي. كان الروس نظيفين في معاملتهم نظافة الملابس التي فوقهم، عرضوا منتجات روسيا بصورة عفوية وقد ظهر لي أن الناس ترقب عروضهم في كل عام. يشتري الناس أشياء قد أحالها التقدم الحالي إلى النقا، يشترون تلك الأشياء تعلقا بالقديم.

لحق بي صديقي وقد انتهيت من سوق الروس، قال ماذا وجدت؟ قلت كل جميل واقترح علي أن ننتقل للضفة الثانية. قال ضفة شَحْتَاكُ بَحْتَاكُ؟ قلت: يا حبذا.

عبرنا مساحة تخلو من الباعة حتى انتقلت بنا اقدامنا للضفة المقابلة. رأينا هناك صررا كثيرة حول الباعة وعند أقدامهم. قال صديقي: تشتري الصرة من هذه الصرر دون أن تسأل عما فيها. قلت: وماذا بعد؟ قال: أنت وحظك. ثم أضاف: شَحْتَاكُ بَحْتَاكُ. ضحكت دون أن استلقي على قفاي كما في الحكايات وقلت: كسبت منك اليوم كلمة شَحْتَاكُ بَحْتَاكُ. ثم أضفت: يا شَحْتَاي ويا بَحْتَاي إذن، وسألت: أليست غشا تجاريا؟ قال: لست أدري، لكن محتويات الصرر لا تقل كثيرا عن المبلغ المدفوع وربما زادت، والناس مستمرين في الشراء وابن آدم طمّاع لا يملأ فمه إلا تراب القبر.

وقفنا على الصرة الأولى، اقتربنا من البائع فقال من رغب الشراء فليحمل الصرة بيده. حملت صرة راقية لي، رفعتها أمام عيني وقلت هذه. قال ادفع ثمنها أولا.

اقترب وبدأ يشرح: دفع الثمن دليل القبول والقبول يحتم علي أن أضع أمامك بعض المفاتيح والمفاتيح قد تفتح لك مغاليق الصرة فتعرف ما فيها قبل فتحها. أغراني بما قال فدفعت الثمن، انتظرت مفاتيحه فلم يطل انتظاري. قال وكأنه دلال في معرض السيارات المستعملة: فيها مراخٍ وأنهار، فيها أشجار وأبقار، فيها مائدة لم تنزل من السماء وما طافت على المدار. ضحكت وضحك صديقي الذي قال: رأيت؟ كل هذا في صرة صغيرة، قلت أعجبنى كلامه. ذكّرتني بالجرباب في قصة العجمي والكردي من قصص ألف ليلة وليلة.

وقفت بنا أقدامنا عند صرة ثانية، اقتربت بنا أيضا من البائع وفي هذه المرة كنا على دراية بقانون الصُرر. انتقى صديقي واحدة، رفعها عاليا أمام البائع وأعطاه الثمن. قال: هذه الصرة فيها بيارق وأعلام، وفيها مدن وأقوام، فيها سكك وشوارع لا تعمية فيها ولا أسرار.

ضحكت وضحك صديقي الذي سألتني: هذه أيضا في ألف ليلة وليلة؟ قلت له المبدأ موجود، اما التفاصيل فلا. قال أخبرني بها، قلت سأخبرك ولكن في طريق العودة، عندما نستقل السيارة يحلو الحكي.

انتحينا جانبا فقد كانت أقواس الفضول مشدودة. قررنا فتح الصرر وكل الناس مثلنا، لا أحد يصبر. يتم الشراء وبعدها ينتحي الشاري قليلا، يفتح الصرة، يرى ما فيها. فإن كانت خيرا طمع وعاد وإلا ابتلع مرارة الندم وغادر سوق الصُرر.

فتحنا الصرة التي اشتريتها. سابقتنا لهفة الفضول وولع التطلع، أدخلت يدي، أخرجتها فإذا بها تخرج وفيها لفافة كبيرة، لفافة جبن فرنسي. قال صديقي وهو يقلب اللفافة: فيها مراخٍ وأنهار، فيها أشجار وأبقار، فيها

مائدة لم تنزل من السماء وما طافت على المدار . ضحك صديقي وقال:
صدق البائع ورب الكعبة. قال ذلك وهو يسارع لفتح صرّته.
فتح الصرة، أولج يده في جوفها وضحك. أخرج يده وإذا بها تحمل كتابا.
تناولت الكتاب، طالعت عنوانه فإذا به أطلس العالم وضحكنا. ضحكنا ونحن
نردد: هذه الصرة فيها بيارق وأعلام، وفيها مدن وأقوام، فيها سكك وشوارع لا
تعمية فيها ولا أسرار .



دسام وٲعالب



قال دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف وهو رأس البراهمة: أضرب لي مثلا لخسيس بيتز ضعيفة لا حول لها ولا قوة ثم تخضع تلك المسكينة الضعيفة لابتزازه دون أن تدري أنه أضعف مما تعتقد. قال بيدبا: حكى لنا من نثق في عقله أن حمامة قد اتخذت من نخلة عالية مكانا تفرخ فيه. بنت لنفسها عشا في أعلى النخلة، بنت ذلك العش لتبيض فيه وتفرخ بعيد عن الأعداء، تحملت صعوبة المكان الشاهق الارتفاع قليل الأوكسجين، صبرت على الرياح العاصفة وعلى البرد القارس وعلى الحر اللاهب وعلى سائر اضطرابات الطقس، قبلت ذلك كله وأكثر في سبيل أن تتأى بنفسها وأبنائها عن كيد الكائدين.

باضت الحمامة المسكينة في موعد بيضها المعتاد. احتضنت بيضها أياما وليال حتى حان موعد النور، فقس البيض فخرج الفرخ الأول، لحق به الفرخ الثاني، اكتمل بهما جمال العش الذي باتت في جنباته أسرة سعيدة فيها أم وفرخان.

مضت أيام عديدة والحال على رتابته المعهودة وفجأة تغير الحال. جاء الثعلب اللعين حتى وقف تحت النخلة، صرخ بصوته الأَجَش: تلطفي عليّ بطعام من عندك فأنا جائع. قالت له: جائع؟ وما ذا تطلب عندي؟ هل ترى عندي مطعما؟ أم تراني أنشأت كافتيريا في رأس النخلة؟ سخرت منه قليلا ثم قالت: اذهب وفتش لك عن مكان تجد فيه طعاما، لا طعام لك عندي.

استشاط الثعلب غضبا، كان تعنيف الحمامة موجعا. قال لها: كيف لا طعام عندك وتحت جناحك فرخان سمينان طريّان؟. اشمأزت كثيرا من الثعلب، اشمأزت من لغة الافتراس تلك، قررت عدم الرد فهو لا يستحق الاهتمام أبدا. زاد غضب الثعلب، استتكف أن تتجاهله حمامة ضعيفة، قال

لها: لم التجاهل وأنا الثعلب؟ ردت عليه بصرامة: وإن كنت الثعلب هل أعطيك فراخي لتأكلهما؟ أتقبل ذلك على نفسك؟ لو جاءك الضبع وقال اعطني واحدا من أبنائك كي آكله هل تقبل؟ قبل أن تقبل أو لا تقبل ما شعورك نحوه؟ هل تعتبره مجرد ضبع جائع؟ أم عدو لدود لا ذمة له؟ من الخير لك ألا تعيد ذلك الطلب، عيب وحرام وعار عليك كبير .

ضحك الثعلب، ضحك كثيرا وطويلا كما لم يضحك ضاحك من قبل ومن بعد. قال لها وقد استلقى على قفاه من الضحك: عيب وحرام وعار، سألها: وهل تعرفين العيب والحرام والعار؟ لزممت جانب الصمت. تجاهلت هذا الكائن الكريه فلما أوجعه ذلك قال لها: انظري أيتها الحمامة التعيسة، انظري نحوي، تألمي هذه الصورة الملونة، صورتك وأنت تضعين البيض والبيض يخرج منك.

نظرت، ارتعدت فرائصها، فقدت القدرة على الكلام، انفجرت باكية، بزغ الكلام من بين شهقات البكاء. قالت له: لعنة الله عليك أيها السافل، كيف حصلت على الصورة يا ملعون؟ سوف ينصفني الله منك وسوف ينتقم منك انتقاما يشفي غليل الضعفاء الذين تستقوي عليهم، واستمرت في البكاء الحار. سكت الثعلب السافل الخسيس. لزم الصمت ولم يتكلم أبدا، ترك الحمامة تصب البكاء على الكلام وتسقيهما بالدمع. لا حظ بعد وقت ليس بالقصير أن الحمامة قد تعبت، تعبت فكفت عن البكاء وكفت عن الكلام أيضا. قال لها وقد داخله زهو الجلاوزة المنتصرين: لقد تربصت بك من مكاني هذا. انتظرت حتى جاء وقت البيض. انتظرته بشوق كبير فلما خرجت البيضة الأولى كنت لها بالمرصاد. وجهت كامرتي المزودة بمنظار مقرب، تيمنت وتيسرت، ضبطت الفوكس على أدق حالاته ثم ضغطت على الزر.

عادت المسكينة للبكاء. اختلط بكأؤها باللعات التي تصبها صبًا على رأس الثعلب السافل الخسيس، لم تترك عبارة تصف فيها دناءة الثعلب إلا وقذفت بها على وجهه الكريه.

سمع الشتائم كلها. سمع النشيج كله. لم تهتز منه شعره بل قال لها: هذه الصورة سأنشرها في جميع مواقع التواصل الاجتماعي، انشرها في طول الشبكة العنكبوتية وعرضها، أجعل منك فضيحة القرن. عادت المسكينة إلى البكاء، بكت لكنها لم تعد تشتم الثعلب.

شعر الخبيث بأنها بدأت تضعف. أدرك من حالتها الراهنة أنها مقبلة على مرحلة التوسل والاستعطاف والاسترحام. أدرك أيضا أن مرحلته القادمة ستكون مليئة بفروخ الحمام. قالت له بعد صمت مرير: ما الذي يدفع بقوي مثلك أن يقهر ضعيفة مثلي؟ كنت أرى فيك أبا وأبا وجارا ترعى الذم فما الذي غيرك؟ أستحلفك بالله ألا تنتشر هذه الصورة، أتوسل إليك تخلص منها يا أدكى الحيوانات، خذ ما تشاء واتلف هذه الصورة يا جاري.

أدرك الآن أنه قد وصل. بلغ المرتبة. أراد الخبيث أن يلعب النقلة الأخيرة، سرّه أن يقول لها: كش ملك فهياً نفسه لنصر مؤزر. قدم رجلا وأخر الأخرى، لَوْن لحظته تلك بشيء من المرحمة المصطنعة الكاذبة، قال لها بصوت مرتفع: استمعي إلي جيدا يا بنيّتي، ما دمت ترين في شخصي الضعيف أبا وأبا وجار فلن أخيب ظنك. سأعطيك فرصة للتفكير حتى يوم غد. إذا جاءت مثل هذه الساعة جنّت إليك.

سأقف هنا، أقف تحت هذه النخلة الباسقة، فإذا وقفت طلبت منك فرخا من فروحك. أَلْتِي بفروحك إليّ فإذا وقع في يدي أحرقت الصورة أمام عينيك، استودعك الله الآن. غادر المكان بخطوات وقورة، تأكد له أنها النقلة الأخيرة وغدا سيقول كش ملك ويأكل الفرخ الأول.

غادر السافل الخسيس مكان المأساة التي صنعها بدم بارد. غادر وبقيت الحمامة في أسوأ حالاتها هما وقلقا وأعصابا متوترة. بقيت صامتة واجمة، مشتتة التفكير لا تقدر على تركيب جملة واحدة. إذا استرجعت كلام الثعلب السافل الخسيس عادت إلى فراخها. تعود إليهم خائفة قلقة متوترة فتحتضنهم، تفرد جناحها عليهم حتى عن ضوء النهار.

تذكرت طعام فرخيها، تألمت كثيرا لأنها تأخرت اليوم على غير عادتها، تحاملت على نفسها فطارت. طارت لتأتي بطعام لصغارها فقد كادت أن تنسى ذلك. طارت بعيدا ثم عادت. انهمكت مع صغارها فنسيت همومها، لكن ما إن تنسى حتى يدهمها موعد الغد فيشتعل الهم في قلبها. قررت أن تتشغل بلحظتها تلك، أبعدت موعد الثعلب عن مخيلتها، تناست ذلك وكأنه لم يكن.

أقبل مالك الحفيد. مر للسلام على الحمامة كما جرت العادة، لاحظ وجها قد لَوَّح القلق والحزن. سأل: خيرا، ما بك؟ قالت له خيرا. رأت أن تخبره بما كان من الثعلب فهو خالها. مالك الحفيد خالها وهو صاحب حكمة ودراية فأخبرته.

بُهِت مالك الحفيد بما سمع. سأل الحمامة: وهل حصل على شيء منك؟ قالت كلا، ولكنه سيأتي غدا لأكل ولدي أو نشر الصورة. ضحك خالها مالك. ضحك وقال: هوني على نفسك يا ابنة أختي، إن فعلتِ معه ما فعلتِ جدتك فلن يؤذيك أبدا. دنت منه الحمامة وسألت: وما فعلتِ جدتي؟ قال كان لها قصة مماثلة مع واحد من أجداد الثعلب، هل أقصص ذلك عليك؟ قالت نعم ولعل في القصة مفتاح خلاص من هذا السافل الخسيس.

انتصبا فوق النخلة الباسقة، انتصب كل منهم على سعفة من السعف
وشرع خالها مالك الحفيد يحكي.

قال مالك الحفيد: حدث منذ زمن بعيد، يوم أن كانت الوحوش
والحشرات والأطيار تأوي إلى كتاب كليله ودمنة، وتبني أعشاشها فيه. حدث
أن جاءت واحدة من جداتك إلى نخلة باسقة مثل نخلتك هذه. سكنت في
أعلاها، شيدت عشها في رأس النخلة، قامت على تأثيثه على خير ما يكون
التأثيث. عاشت في بيتها هانئة سعيدة على ما في ذلك المكان من مشقة
ونصب. ظلت هناك تبيض وتحتضن البيض. يفسس البيض فيخرج منه
الصغار كأنهم الأقمار وهي قائمة عليهم. تطعمهم وترعاهم وتعيش معهم
حتى إذا كبروا رحلوا، انتقلوا إلى عالمهم الجديد وانفصلوا عن البيت الأول،
هم إلى حياة جديدة وغيرهم يأتي لتبدأ دورة حياة جديدة مع جيل جديد وهكذا
هي سنن الحياة.

ظلت جدتك على هذ المنوال من رغيذ العيش ووارف الأمن حتى
جاءها ثعلب شرير. جاء وبقي مرابطا تحت النخلة، يتوعدها بالويل والثبور
وعظائم الأمور، يقول لها ارمي لي صغيرا من صغارك وإلا تسلقت إليك،
أتسلق النخلة فألكك وأكل صغارك جميعا. لا طفته جدتك المسكينة. ذكّرتة
بالجوار وحقوق الجوار، حاولت أن تحيي فيه الشيم والمروءات دون جدوى.
هي تلاطفه وهو يستبد ويشتد، تذكّره وهو يدوس على القيم. لا تسمع منه
سوى عبارة واحدة: ألقى علي بواحد من صغارك أو أتسلق النخلة. أدركها
منه فرق وفرع.

قالت لنفسها: لو تسلق النخلة لأكل الفرخين وأكلني معهما. ماذا لو
أعطيته فرخا فلا يتسلق إلي. وهكذا استسلمت جدتك المسكينة لتهديد الثعلب

الشرير. ألقت إليه بالفرخ الأول. ظلت تراقب فلذة كبدها وهي يهوي، وقبل أن يصل الأرض استقر في فم الثعلب الشرير.

حزنت على فرخها. بكت بكاء مرًا، شكت إلى الله ضعفها وهوانها وطلبت منه أن يغفر لها ما فعلت مع صغيرها.

مضى اسبوع أو بعض الأسبوع. جاء الثعلب الشرير مثل مثل ساعة القدر. نادى من أسفل النخلة أن ألقى عليّ صغيرك. أطلت جدتك من عل، رأت وجهه الكريه تحت الشجرة، قالت له: اتق الله يا جار. لي فرخان أكلت أحدهما فاترك الثاني لي. قال لها: إني جائع جدا عليّ بالصغير الثاني. نكرها بما سيحدث لها لو امتعت.

كررت الرجاء. وعدته أن تعطيه من الفرخين القادمين واحدا. أغرته بفرخ من فرخين مدى الحياة فأبى. ألقت له بالصغير وهي باكية يتمزق فؤادهما على الصغير المسكين.

سَطِرَ الخبيث الشرير جدولًا بمواعيد بيضها. ظل يأتيها على الموعد في كل مرة، يأتي فيأكل الفرخ الأول ثم يغيب أياما ويعود، يعود على موعد ليأكل الفرخ الثاني. يمكث بعيدا إذا قضى على الفرخين ويبقى مداوما على مطالعة الجدول، يداوم على مطالعته حتى يحين الحين فيأتي مثل القضاء والقدر.

تعبت جدتك كثيرا. اعتراها الهم والقلق وتأنيب الضمير حتى ضعفت وهزلت وشحب لونها. رآها المرحوم جدي مالك الحزين على هذه الحال فاستغرب. أنكر عليها ما هي فيه، سألها فأخبرته بالقصة كاملة. تألم كثيرا مما سمع، تفرق الدمع في عينيه، عاتبها عتابا مرًا على إخفاء هذه الكارثة عنه، وعاتبها أكثر على جهلها بطبيعة الثعلب، أخبرها أن الثعلب لا يقدر على تسلق شجرة قصيرة فكيف يتسلق نخلة عالية؟ وبخها رغم ما حاق بها

من ظلم الثعلب. قال لها إن جاءك على موعده فقولي له لن تأكل صغاري أيها الشرير، لن تأكلهم بعد الآن أيها المعتدي الأثيم.

جاء الثعلب الشرير على موعده. جاء على ما أرشده إليه الجدول، جلس تحت النخلة التي أمست متكئاً له. صرخ في الحمامة أن ألقى إلي بصغريك الأول. لم ترد الحمامة، تجاهلته تماماً، لم يعد يشكل لها أدنى تهديد. صاح ثانية. طلب الفرخ الأول، صاح مرة ثالثة ورابعة وخامسة ولا جواب.

تحقق ودقق في تاج النخلة. رأى عش الحمامة مكانه، بل رأى الحمامة ذاتها فاستشاط غضباً. صرخ بقوة: هات الفرخ الصغير الأول يا ملعونة الوالدين. أطلت بوجهها من علٍ. قالت له: أنا لست ملعونة والدين، ملعون الوالدين من يتريص بخلق الله فيأكل صغارهم.

تدفق الزبد من شذقيه. قال لها من تحت طبقات الغيظ: حسنا، حسنا، لا بد مما ليس منه بد إذن. أتسلق النخلة فألكك وأكل صغارك دفعة واحدة. قالت له بكل ثقة: أنت لا تقدر على تسلق النخلة، أكدت له (وكأنه لا يعرف إلا منها) أن الثعالب لا تحسن تسلق الأشجار.

أطرق وتلفت يمينا ويسارا. فغر فاه ثم اغلقه، أدرك الثعلب الشرير أن أحدا قد أخبرها بذلك. قال لها: صدقت يا أختي، نحن معشر الثعالب لا نتسلق الأشجار ولكن أخبريني: من قال لك هذا؟ قالت: خالي، خالي مالك الحزين قال ذلك.

انصرف الثعلب مهزوما. مزّق جدول البيض ومضى. مضى لكنه عزم على قتل مالك الحزين! ظل يترصد لمالك الحزين أياما وليال عديدة، يراه إلا محلقا بعيدا عنه. بث العيون والجواسيس في كل مكان، قرر مكافأة لمن يدل عليه، بل وعد برشاوى لبعض الطيور التي تربطها بمالك الحزين

صلة القريبى. جاءه بعد أيام جاسوس من جواسيسه. قال له الجاسوس أن مالك الحزين فى شاطئ المرجان الأزرق الآن فادركه هناك.

تحرك الثعلب الشرير بجراً ذيله الثقيل وراءه، انطلق حتى بلغ شاطئ المرجان الأزرق. رأى خصمه على بعد أمتار منه، اقترب منه، سلم عليه فرد عليه التحية بأحسن منها. قال له: مضت أيام وليال كثيرة ما رأيتك فيها يا شيخ مالك. أمل أن تكون بخير وعافية. قال له مالك الحزين: أنا بخير وعافية وآمل أن تكون أنت كذلك. اقترب منه الثعلب الشرير حتى قاربه، سأله: يا شيخنا الوقور، إنى أراك اليوم من السعداء، أرى وجهك يطفح بالبشرى فهل أنت من المداومين على ارتياد هذا الشاطئ المواظبين على زيارته؟ قال مالك الحزين، كلا يا صديقى، ارتاده بين حين وآخر لكنه شاطئ جميل على كل حال.

اقترب منه الثعلب أكثر حتى جاوره، تظاهر بالحرص والخجل معا، قال يا شيخ مالك، وددت لو سألتك سؤالاً لكنى خشيت أن أثقل عليك. قال مالك الحزين: تفضل يا صاحبي، اسأل ما بدا لك فنحن أصدقاء. قال الثعلب الشرير: يحيرني كثيراً طول عنقك وارتفاع رأسك وهبوب الرياح. فإذا أتتك الريح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال أعطفه نحو اليسار. قال الثعلب: جميل. هذا جميل جداً. فإن جاءت الريح عن يسارك فما تفعل برأسك؟ قال مالك الحزين: أعطفه نحو اليمين. قال الثعلب: ما شاء الله تبارك الله. فإذا جاءت الريح من كل الجهات فما تفعل برأسك؟ قال مالك الحزين: أعطفه تحت جناحي.

تظاهر الثعلب بالدهشة: تحت جناحك؟ كيف يكون هذا؟ أراه أمراً صعباً. قال مالك الحزين بل هو أسهل ما أعمل، لو رغبت أرتك الآن كيف يكون.

فرح الثعلب بما وصل إليه، أدرك في غمضة عين أن فرصة الانتقام قد حانت. قال له زيادة في المكر: لا لا تريني حتى لا يصيبك مكروه من التواء أو شدّ لا سمح الله. قال مالك الحزين وقد امتلأت جوانحه غرورا: أبدا، أبدا يا صديقي الثعلب، هي حركة تلقائية لا نتضرر منها على الإطلاق. قال الثعلب: إذن على بركة الله، تفضل أرني ذلك. أدخل جدي رحمه الله رأسه تحت جناحه فوثب عليه عدو الله فهمز عنقه همزت أودت به. مات جدي من ساعته فأكله الثعلب، يقول بعض المؤرخين أن الثعلب كان يأكل من لحم جدي ويقول له: أحرمتني من لحم أبناء أختك فعوضتني الأقدار بلحمك. أتم مالك الحفيد القصة. أتمها والحمامة الحفيدة تنصت وتغالّب الدموع. لقد عانت جدتها كثيرا من عدوان الثعلب، وفقد مالك الحزين الجد حياته، دفعها ثمنا لنصيحة قدمها لحمامة ضعيفة تواجه بطش ثعلب لا يرعوى.

أدركت الحمامة الحفيدة أن جدتها قهرت بالمعرفة والإرادة عدوها الثعلب. قالت لخالها: والان ماذا يتوجب علي فعله غدا إذا جاء الثعلب الخسيس السافل؟ قال لها: لا تقيمي له وزنا فالمعتدي جبان بطبعه، فإن قال سأنشر قولي له أنشر. قولي له النشر يدينك أنت لا يدين أحدا غيرك، ما قمت به هو انتهاك لحرمتي وتشهير بأدق خصوصياتي. تنبّهت الحمامة الحفيدة للموقف بصورة صحيحة، تنبّهت لكنها سألت: هب أنه نشر دون خوف فما العمل؟ قال لها لن ينشر، ولو نشر فإن هناك قوانين كثيرة تقف في وجهه.

عاد مالك الحفيد ليطمئن الحمامة الحفيدة، سألتها: كم من شخص سوف يرى الصورة؟ وكم من شخص بين الذين رأوها يعرفونك؟ وكم من شخص بين الذين يعرفونك لا يتقون في سلوكك؟ وكم من شخص بين هؤلاء

سيتعامل مع الصورة وكأن ليس فيها انتهاك الحرمات؟ ما هذا الخوف من الانترنت ومن مواقع التواصل؟ لا ينبغي لأحد أن يخضع لابتزاز الشبكات العنكبوتية بهذه البساطة. قللي لا بملء فمك لابتزاز هذا الثعلب الخسيس. قللي لن أخاف من خطوتك الغبية هذه، قللي لحم أولادي حرام عليك. بان الارتياح على وجه الحمامة الحفيدة. تشربت كلام خالها مالك الحفيد، أقسمت على الصمود وأقسمت أن لحوم صغارها محرمة على الثعلب وعلى كل ثعالب الكون.

جاء اليوم التالي. حان الموعد المشؤوم وجاء الثعلب يجر ذيله الثقيل. توقفت به أقدامه تحت النخلة إياها. صرخ وكأنه واحد من رجال الكابوي فلم ترد عليه الحمامة، صرخ مرة ثانية وثالثة ولم ترد. قال بصوت عال: يبدو أن حمامتنا الذكية قد اختارت مسار الفضيحة. ردت عليه في هذه اللحظة فقالت: الفضيحة عليك وحدك. انشر لتدين نفسك أيها المعتدي الأثيم.

جلس على ذيله وكأنه قطة ذليلة. قال مستغرباً: ما الذي حدث؟ ما لذي تغير؟ بالأمس تقولين خذ مني ما تطلب ولا تتشر. رفع صوته أكثر: هل نسيت محتوى الصورة؟ هل أنت بحاجة لمن يذكرك بما فيها؟ قالت: كلا ما نسيت أيها المعتدي الأثيم، الصورة أنت من صوّرها وسوف أحاكمك على فعلتك القبيحة هذه.

أسقط في يد الثعلب السافل. دار حول نفسه قليلاً، أراد أن يخرج منتصراً فقال لها: يبدو أنك مرهقة، لا قدرة لك على تمييز حالتك الدقيقة لذلك سأمهلك يوماً آخر. قالت لا تمهليني يوماً ولا يومين. قم بالنشر الآن كي أدينك بفعل يدك، انشر كما تشاء أما لحوم أبنائي فإنها محرمة عليك وعلى كل ثعالب الكون. أطرق قليلاً، دار حول نفسه، طراً عليه أن يسأل: من أخبرك بهذه الأمور يا صغيرتي؟ من قال لك أن النشر إدانة صريحة ضدي؟

ويبدو أن المسكينة قد نسيت ما حدث لمالك الحزين الجد، قالت: خالي، خالي مالك الحفيد هو من قال ذلك. التقط الثعلب الشرير زلّة اللسان هذه فأسر الانتقام من خالها في نفسه. وقبل أن يغادر قال لها: ما قاله خالك هراء في هراء، سأكون أرحم منه وأعطيك مهلة ثانية حتى الغد. تندهت الحمامة المسكينة إلى غلطتها، عضت أصابع الندم حيث لا ينفع الندم، عاتبت نفسها على تفريطها في سرّ خالها وخشيت عليه من مصير الجد الراحل، تناولت الحمامة الحفيدة هاتفها الجوال وتلفتت على خالها.

قالت لا تعاتبني اليوم. أخطأت في حقك وهذا قدرتي، انتبه لنفسك فقط. عميت يا خالي عن الأمر فكشفت له السر كما فعلت جدتي مع جدك. أحم نفسك أولاً، احترس الان ثم عاتبني غدا. رد عليها خالها مالك الحفيد، قال لها أنه كان سيعاتبها لو لم تحذره، مادامت قد حذرته فقد أسدت إليه معروفاً. أضاف خالها الحكيم أن حالها يتطلب منها الان الحذر والدقة، حالها الان يتطلب النفرغ الكامل لمواجهة الثعلب.

عمد الثعلب الحفيد إلى ما عمد إليه جده، ظل يترصّد لمالك الحفيد أياماً وليالٍ عديده، لا يراه إلا محلقاً بعيداً عنه. بثّ العيون والجواسيس في كل مكان، قرر مكافأة لمن يدلّ عليه، بل وعد برشاوى لبعض الطيور التي تربطها بمالك الحفيد صلة القربى. جاءه بعد أيام جاسوس من جواسيسه، قال له الجاسوس أن مالك الحفيد في بحيرة العنادل الآن فادركه هناك.

تحرك الثعلب السافل الخسيس يجرّ ذيله الثقيل وراءه. انطلق حتى بلغ بحيرة العنادل. رأى خصمه على بعد أمتار منه، اقترب منه، سلّم عليه فرد عليه التحية بأحسن منها. قال له: مضت أيام وليالٍ كثيرة ما رأيتك فيها يا شيخ مالك، أمل أن تكون بخير وعافية.

قال له مالك الحفيد: أنا بخير وعافية وآمل أن تكون أنت كذلك بخير وهناء وسلام. اقترب منه الثعلب السافل الخسيس حتى قاربه، سأله: يا شيخنا الوقور، إني أراك اليوم من السعداء، أرى وجهك يطفح بالبشرى فهل أنت من مداومين على ارتياد بحيرة العنادل هذه؟ المواظبين على زيارتها؟ قال مالك الحفيد، كلا يا صديقي، ارتادها بين حين وآخر لكنها بحيرة جميلة على كل حال. اقترب منه الثعلب أكثر حتى جاوره، تظاهر بالحرج والخجل معا، قال يا شيخ مالك، وددت لو سألتك سؤالاً لكني خشيت أن أثقل عليك. قال مالك الحفيد: تفضل يا صاحبي، اسأل ما بدا لك فنحن أصدقاء.

قال الثعلب السافل: يحيرني كثيرا طول عنقك وارتفاع رأسك وهبوب الرياح. فإذا أتت الرياح عن يمينك فأين تجعل رأسك؟ قال أعطفه نحو اليسار. قال الثعلب: جميل، هذا جميل جدا، فإن جاءت الرياح عن يسارك فما تفعل برأسك؟ قال مالك الحفيد: أعطفه نحو اليمين. قال الثعلب: ما شاء الله تبارك الله، فإذا جاءت الرياح من كل الجهات فما تفعل برأسك؟ قال مالك الحفيد: أعطفه تحت جناحي. تظاهر الثعلب بالدهشة: تحت جناحك؟ كيف يكون هذا؟ أراه أمرا صعبا. قال مالك الحفيد بل هو أسهل ما أعمل، لو رغبت أريتك الآن كيف يكون. فرح الثعلب بما وصل إليه، أدرك في غمضة عين أن فرصة الانتقام قد حانت.

قال له زيادة في المكر: لا لا تفعل. أخشى أن يصيبك مكروه من التواء أو شد لا سمح الله. قال مالك الحفيد وقد عزم على توريث الثعلب السافل الخسيس: أبدا، أبدا يا صديقي الثعلب، هي حركة تلقائية لا نتضرر منها على الإطلاق. قال الثعلب: إذن على بركة الله، تفضل أرني ذلك. أدخل مالك الحفيد رأسه تحت جناحه وهو على قدر كبير من الحيلة والحذر، وثب عليه الثعلب السافل الخسيس، وثب عليه لكن مالك الحفيد كان متيقظا، طار

عاليا في تلك اللحظة فجاءت قفزة الثعلب السافل في عمق البحيرة. حشرج
الثعلب قليلا، حشرج ومات وكان في لحظاته الأخيرة يرى مالك الحفيد وهو
يخلق عاليا في أعماق السماء.



مراثي بني إسكاف





في الليلة الدهماء بعد الألف قالت شهرزاد: بلغني أيها الرجل السعيد صاحب الرأي المجيد أن سعد الدين الكنفاني حين همّ بإغلاق دكانه ذات يوم، رأى جاره معروف الاسكافي يقف مترددا خجلان على باب الدكان. اقترب منه، أدخل سبابته والوسطى من تحت ذقنه ورفع رأسه. قال له: ماذا تريد يا جاري؟ قل ولا تخجل. ضحك معروف الاسكافي مطمئنا، ضحك حتى بانث نواجذه. شاهده سعد الدين الكنفاني وهو يضحك فاستخّفه الضحك، ضحك الكنفاني بدوره حتى استلقى على قفاه.

اطمأن معروف الاسكافي بعد نوبة الود بينهما. قال للكنفاني: احتاج يا صديقي إلى صدر من الكنافة المقمرة المغمورة بعسل النحل، ألحت عليّ فاطمتي العرّة في ذلك ولا مال عندي. طمأنه سعد الدين الكنفاني، وافق على إمهاله في ثمن الصدر إلى ميسرة، لكنه اعتذر عن عسل النحل فلا عسل عنده إلا عسل القصب.

تناول معروف الاسكافي صدر الكنافة بعسل القصب، قال لعل فاطمتي تقدر الحال فتقبل بعسل القصب بدلا من عسل النحل ثم انصرف.

همّ سعد الدين الكنفاني بإغلاق الدكان. همّ لكنه رأى جاره الثاني علي جناح التبريزي يقف مترددا خجلان على باب الدكان ومعه تابعه قفّه، اقترب من علي، أدخل سبابته والوسطى من تحت ذقنه ورفع رأسه، قال له: ماذا تريد يا جاري؟ قل ولا تخجل. ضحك علي جناح مطمئنا، ضحك حتى بانث نواجذه. شاهده سعد الدين الكنفاني وهو يضحك فاستخّفه الضحك، ضحك الكنفاني بدوره حتى استلقى على قفاه.

اطمأن علي جناح بعد نوبة الود بينهما، قال للكنفاني: احتاج يا صديقي إلى صدر من الكنافة المقمرة المغمورة بعسل النحل. ألحت عليّ فاطمتي العرّة في ذلك ولا مال عندي. طمأنه سعد الدين الكنفاني، وافق على إمهاله

في ثمن الصدر إلى ميسرة، لكنه اعتذر عن عسل النحل فلا عسل عنده إلا عسل القصب.

تناول علي جناح التبريزي صدر الكنافة بعسل القصب. قال لعل زوجتي تقدر الحال فتقبل بعسل القصب بدلا من عسل النحل. حك ذقنه قليلا وحك قفاه طويلا ثم طلب صدرا آخر لتابعه قفه. وضّح للكنفاني أن تابعه قفه أيضا قد ألحّت عليه فاطمته العرّة في صدر من الكنافة المشربة بعسل النحل وليس معه مال.

ابتسم الكنفاني وأعطى قفة صدرا من الكنافة ولكن بعسل القصب لا عسل النحل، سلّمه الكنافة التي تناولها قفة شاكرا مؤملا أن تقبل فاطمته بعسل القصب بدلا من عسل النحل.

انصرف علي جناح التبريزي وتابعه قفة، انصرفا وتركوا سعد الدين الكنفاني يصارع حيرته. احتار الكنفاني كثيرا في أمر فاطمة العرّة، قال في نفسه: زوجة معروف الاسكافي اسمها فاطمة العرّة وكذلك زوجة علي جناح التبريزي وزوجة تابعه قفة، ضحك وهو يواصل إغلاق فم الدكانة قبل أن يستلم جادة الطريق إلى داره.

قالت شهرزاد: بلغني أيها البعل السعيد صاحب الرأي السديد أن معروفا الاسكافي عندما وصل إلى زوجته فاطمة العرّة ناولها الكنافة، أقسم لها أنه اشتراها بالأجل لترضى عنه. أخذت صدر الكنافة بوجه تهرب منه الوحوش الكاسرة فأكلت منه. قضمت قضمتها الأولى ثم صرخت في وجهه: هذه الكنافة بعسل القصب وأنا طلبت عسل النحل. أبعدت عنها الكنافة ثم أضافت: هكذا تُرضي زوجتك؟ أقسم بمن أحلّ القسم، ورفع السماء بلا عمّد لتأكلنها وإلا أوسعتك ضربا في هذه الليلة؟

بُهِت معروف. أظلمت الغرفة في عينيه. أظلم الكون كله في عينيه ومع ذلك تناول صدر الكنافة وشرع يأكل. شتمته زوجته وتمنت له الموت، كل الكنافة سمًا يمزق أمعاءك، كل ما جئت به وسوف أجعل ليلتك هذه ليلة نكد حتى الصباح.

نهض في الصباح مكدودا. أخذ مفاتيح الدكان وخرج لا يعرف وجهه من قفاه وعندما وصل فتح الباب ودخل، وجلس والأحذية حوله كأنها غرابان أفناها مبيد البلدية. جلس ساعات طوال بلا زبائن لكنه لم يفقد الأمل. جاءه ثلاثة رجال شداد غلاظ، أمروه بأمر القاضي أن يغلق الدكانة ويذهب معهم. قال لهم: سمعا وطاعة ولكن. سألهم إن كان هناك من سبب. قالوا فاطمك رفعت أمرك إلى القاضي. أضاف كبيرهم: لا نعرف أكثر مما قلنا ولكنك ستعرف التفاصيل عند القاضي. قال لهم وبريق حزن يلمع في عينيه: انحناني وقتا أصلي فيه ركعتي وأدعي فيه دعاء المظلوم.

صلى ثم ضج إلى الله بالدعاء: حسبي الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم لا أشكو ضعفي وهواني إلا عليك، اللهم أن أمتك فاطمة العزة قد ظلمتني وإنما لا تعجزك، اللهم فأرني فيها عجائب قدرتك.

قالت شهرزاد: بلغني أيها البعل السعيد صاحب الرأي السديد أن معروف الاسكافي قد واجه تهمة ضرب زوجته ضربا مبرحا! دافع عن نفسه، أكد للقاضي أنها هي التي ضربته وليس هو لكن القاضي أصرّ على التهمة. كذّبه علنا أمام المحكمة. وصفه بالظالم المتعجرف وحكم عليه بدفع ألف جنيه وجنيه تعويضا لزوجته.

حاول معروف الاسكافي أن يبين حالته. ذكّر القاضي بصدر الكنافة الذي ابتاعه دينا. لكن القاضي رفض ذلك كله. خيّر بين دفع التعويض المالي وبين الطلاق، كرر كلمة الطلاق عدة مرات ثم أضاف: وسوف تكتب

اقرارا خطيا تلتزم فيه باحترام زوجتك المسكينة. أضافت البعلة على قرارات القاضي أن يلتزم المدعو معروف الاسكافي بصدر كنانة مغمور بعسل النحل في كل ليلة فأضاف القاضي ذلك.

خرج معروف الاسكافي من قاعة المحكمة، اتخذ في قرارة نفسه أمرا. أضمر شراً يرجو من ورائه خيرا، قرر ترك المدينة وفاطمة العرّة. اختار السياحة في أرض الله الواسعة لعله يتغير الحال.

ذهب أولا إلى دكانته. جمع أدوات العمل وقرر بيعها. وضعها داخل كرتونة ثم باعها على اسكافي آخر. استحصل المال ثم دفع لزوجته ما قرر القاضي، سلم المال يدا بيد ثم تركها وخرج.

ظل يمشي حتى أضناه التعب وأوحشه الظلام، تلفت فرأى دارا خرابية، قال لنفسه أبيت في هذه الخرابية ودخل. دخل الخرابية فألقى علي جناح التبريزي وتابعه قفة جالسين في أقصى الخرابية. فزع منهما وفرعا منه لكنه تذكرهما وتذكرهما. أمضوا شطرا طويلا من الليل في مجاذبة وحكي، روى كل واحد منها قصته مع فاطمته وعسل القصب.

قالت شهرزاد: بلغني أيها البعل السعيد صاحب الرأي السديد أن هذه مصادفة عجيبة غريبة، أن يتشابه الثلاثة في كل شيء وهنا أدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة الليلية بعد الألف قالت شهرزاد: بلغني أيها البعل السعيد صاحب الرأي المجيد أن معروفا الإسكافي وزميله علي جناح التبريزي وتابعه قفة بعد أن أمضوا طرفا من الليل في تجاذب أطراف الحديث داهمهم النوم، هبط عليهم كما يهبط الثلج على الأكام، فكفوا عن التثرثرة وناموا. ناموا فارتفعت معازف أنوفهم حتى أيقظت عمار الخرابية، ولا شيء مثل الشخير يحرك همة الجان والشياطين.

خرج منهم ثلاثة لأنهم رأوا النائمين ثلاثة. خرجوا من قلب حائط متهالك، استقروا عند رؤوس النائمين واحدا بعد الآخر وشرعوا في إيقاظهم بأسمائهم: معروف! علي! قفة، استمروا على ذلك بنفس اللطف حتى استيقظ النائمون. فتح معروف عينه ثم جلس وجلس لجلوسه كل من علي وقفة.

تحدث معروف فسأل: من أنتم؟ قالوا نحن من الجن، اصطكت ركبته وارتبك صاحبه فعاد يسأل: الجن؟ وما الذي جاء بكم إلينا؟ قال الجني الأكبر: بل أنتم ما لذي جاء بكم هنا؟ فلما رأى الحيرة على وجوههم بين لهم أن الخرابة لهم، وأنهم عمارها منذ ألف عام أو تزيد. اعتذر معروف وعلي وتابعه قفة عن تطفاهم، أقسموا للجني الأكبر أن اجتماعهم هنا جاء محض صدفة ولن يعودوا هنا حتى ولو لم يجدوا مكانا إلا في جهنم.

ضحك الجني الأكبر حتى استلقى على قفاه واستلقى بجانبه رفيقاه، جلسوا بعد ذلك ليقول الجني الأكبر: أنتم في ضيافتنا وبعد الضيافة سندفنكم دفنا تحت الدولارات ونحملكم على ظهورنا إلى أي مكان تطلبون.

أقسم معروف الإسكافي للجني الأكبر أنهم لن يتقلوا عليه ولا على أخويه ولن يأخذوا دولارا واحدا، قال بأن غاية كل واحد من الثلاثة هو صدر كنانة بعسل النحل يرضي بها فاطمته العرة فلم الكلفة؟

ضحك الجني الأكبر حتى استلقى على قفاه واستلقى بجانبه رفيقاه. جلس وجلسا بعد حين ليحلف عليهم بالطلاق والعقاق أن الأمر قد حسم وأن ثلاثا من حقائب السيمسوناييت الفاخر قد حشيت بالدولارات جاهزة للتسليم.

امتقع وجه معروف الإسكافي. داخله بعض الخوف، قال للجني الأكبر: يا صديقي نحن من أقر الناس. نحن اسكافيون نصلح الأحذية والزرابين. وجود حقائب محشوة بالدولارات أمر فيه شبهه. اسكافيون ومعهم دولارات،

معهم حقائب مليئة بالدولارات، كل من يرى أمثالنا ومعه هذه الحقائب وما فيها يدرك أنا لصوص أو مزورون أو مبيضو أموال.

كرر الجني الأكبر بعض عبارات معروف الإسكافي على وجه إلى السخرية: شبهة، اسكافيون، حقائب، دولارات، لصوص، مزورون، مبيضو أموال، ككرر تلك الكلمات جميعا ثم ضحك حتى استلقى على قفاه واستلقى بجانبه رفيقاه. جلس وجلسا، استواوا جلوسا والثلاثة في حال من رعب واشمئزاز في آن معا.

قام الجني الأكبر باستخراج كيس من الجوخ الأحمر، فتح الكيس فأخرج منه جهاز تسجيل ثم شغل الجهاز. وقف على رأس معروف ثم على رأس علي جناح ثم على رأس قفة. وقف وفي كل وقفة كان يضغط بسبابته المعقوفة، يضغط على هامة الواحد منهم ويقول برقة عجيبه: استمعوا جيدا. فاستمعوا بصمت كأنه صمت من في القبور.

عَوَجَ الذل رقابهم، تصبوا عرقا وأطرقوا خجلا. انفعل قفة على غير عادة منه، طوح بالجهاز بعيدا، قال والزيد على شواطئ فمه: اختطفتم نساءنا للمساومة؟ قال الجني الأكبر: نعم، وسوف نفرمهن فرما كما تفرمون اللحم للسنبوسة. نفرمهن أو تحملوا هذه الحقائب إلى جهات نحددها لكم. هدد بذلك ثم ضحك ضحكة المارد المجلجلة المدوية المخيفة.

انفعل قفة أكثر، اقترب من الجني الأكبر أكثر، بصق على وجهه وهو يقول: هذا ابتزاز. كان رد الجني سريعا متوقعا، صفع قفة المسكين صفة زلزالية. دار قفة في كل اتجاهات الخرابة وكأنه يبحث عن حائط يستند إليه. ذهب يسارا، ويسارا، ويسارا، حتى أتم الجهات الأربع. استقرت يدها على كتف الجني الأكبر. تأمل في شرر عينيه فنزلت يدها. تأمل في صدره فنزلت يدها أكثر. أخذ يتقاصر ويتقاصر حتى استقر عند قدميه.

شُطْرَة



شُطْرَة في هذه الليلة استحوذ على كل شيء. بات محظ اهتمام كل الناس، وحتى الإعلام الرقمي والتقليدي شُغِلَ به بعد أن أعلن عن القفزة الكبيرة. أعلن عن قفزة حرة لم تحدث من قبل، خطط لها أياما. قفزة حرة من أعالي السماء، يقفز دون أن يفتح مظلاته العشر المصممة لهذه القفزة، لا يفتحها إلا على مقربة من الأرض.

اشتعلت القنوات. اشتعلت وسائل التواصل الاجتماعي، دارت الندوات، تدارس الخبراء هذه القفزة، أجمعوا على أنها قفزة القرن. لهذا السبب جاءت قناة الحي السعيد إلى دكانة شُطْرَة، التقت المؤذن الذي ربّاه، وزوجة المؤذن التي أرضعته.

قابلت القناة جيرانه ورفاق طفولته. طلب المذيع صورا، تمنّاها متحركة فوجد مقطعا يسيرا، وجد معه عدة صور أخرى أخذها، استأذن في تضمينها البرنامج الذي يجري إعداده عن شُطْرَة في يوم القفزة الكبيرة.

قال عنه عمدة الحي: منذ سنوات أعرفه واقفا في دكانه الواسع. يبيع أدوات التجميل، يتخصص فيها، يتواصل مع مصانعاها في مختلف جهات العالم. تتهافت عليه النساء باعتباره خبيرا في مساحيق التجميل. يقضين معه الساعات الطوال، يتوددن إليه وكأنه وسيم عصره الذي لم تلد الأمهات مثله. أطلقوا عليه اسم أحذب نوتردام. ربطوا بين شكلهما القبيح جدا، ووجدوا تاريخا مشتركا يجمع بينهما لكن المؤذن رفض هذه التسمية. اعتبرها بداءة، أو هي في أحسن الأحوال عبارة زائدة لا حاجة لأحد بها. أصرّ على موقفه هذا حتى أرغم الجميع على ترك تلك العبارة الناتئة. كان يرفض الانتقاص من شُطْرَة مع إنه كان يضحك بمجرد أن يراه. يذهب ليؤذن للصلاة فيرى تزاحم النساء فيضحك ويردد في داخله الله الهادي.

يعود المؤذن بذاكرته إلى سنوات مضت. يعود ثلاثين سنة تنقص قليلا أو تزيد. يتذكر الليلة الأولى في مشوار شُطْرَة مع الحياة، يتذكر حتى شكل الكرتون الذي وجده فيه بجوار باب المسجد. فتح الكرتون يومها ثم أغلقه بسرعه، فكر أن يتأبط الكرتون ويطوح به بعيدا، خمّس وسدّس لكنه حمله معه كالعادة إلى البيت.

كان شكله على قدر كبير من البشاعة. بشاعة لا يحتملها قلب، لكنه قرر أن يصبر. لعن من جاء به إلى هنا لكنه تراجع واستغفر لذنبه، قال في قرارة نفسه: ما كل لقيط جاءت به خطيئة، هناك أسباب كثيرة ولعل بشاعة هذا الطفل تقف وراء التخلي عنه. فتح الكرتون مرة ثانية، تمزق قلبه حزنا وأسى، وارتعدت فرائصه فرقا من ذلك الشكل المخيف.

يعبر المؤذن من أمام شُطْرَة، يرفع يده تحية له، يستقبله شُطْرَة، يقبل يده وجبينه على عادة الناس في احترام الأبوين. شُطْرَة يرى في المؤذن أبا، ويرى في زوجة المؤذن أما. معه حق في ذلك فهما من ربّياه حتى كبر، منذ فجر الكرتون ذلك وحتى تلك اللحظة، هو في مقام الابن الوحيد لهما.

ينتظر مربيّه حتى يؤذن للصلاة فإذا سمع الأذان أغلق دكانته الواسعة وحث الخطو إلى المسجد. انتخبه الناس منذ أسبوع واحد إماما لهم، أعجبهم صوته وراقت لهم تلاوته. شهدوا له أمام قاضي المدينة فأصدر قرارا بتعيينه إماما. لم يتغير حاله، استمر بائعا لأدوات التجميل وبقي على اسمه المعروف شُطْرَة، لم يحاول أحد أبدا أن يسميه الشيخ شُطْرَة.

احتدم النقاش بين سكان الحي، شغلهم كثيرا شُطْرَة، ملأ فضاءاتهم أسئلة بلا أجوبة. قال الصقور: أحذب نوتردام بلا أب وبلا أم وكذلك شُطْرَة، قال الحماثم: بل لكل منهما أب وأم. أحذب نوتردام حبسوا أبيه وقتلوا أمه حينما كانت تحاول الهرب به، وشُطْرَة أيضا هناك من حبس أبيه وقتل أمه.

قال فريق الصقور: ربما صحَّ ذلك مع أحدب نوتردام فقد عرفوا خصمه الذي كان قاضيا، القاضي فرولو الذي تولى تسليمه للكنيسة تكفيرا عما فعله بأبيه وأمه، أما شُطْرَة فما عرفوا له خصما.

قال فريق الحمام: القاضي فرولو هو خصم أحدب نوتردام وهو من سلّمه للكنيسة كي ترعاه، شُطْرَة أيضا هناك من أوصله للمسجد ليرعاه، كان القاضي فرولو نصف شرير وكان ذلك المحسن نصف خير. واصل فريق الصقور هجومه الكاسح فقال إنهما متشابهان حتى في الشكل، كلاهما أحدب، كلاهما ناتئ العين منطفئ الأخرى، كلاهما بشع لا تطاق رؤيته. تدخل المؤذن الذي كفل شُطْرَة وربّاه فطلب منهم الكف عن كلام لا ينفع، أضاف لقد تداول الناس اسم شُطْرَة وهذا يكفي.

التقى به مذيع قناة الحي. سأله، طلب جوابا صريحا: أنتقبل تشبيهك بأحدب نوتردام؟ قال: قبل أن أعرف ذلك الأحدب كنت أنزعج، ومع تزايد التشبيهات قررت أن أعرف عنه. قرأت الرواية فأعجبني كثيرا، تعلقت به ولا أخفيك أن بعض مغامراتي كانت محاكاة له.

سأل المذيع: ماهي أكثر مغامراتك رعبا؟ قال: عندما قفزت بالمظلة ولم أستطع فتحها حتى وقعت على الأرض، لم أُصّب يوما ولم يمسنني أذى فظن الناس أن لي سلطة على الجن. ضحك المذيع ثم سأل سؤالا آخر: وما أشد التجارب المؤلمة التي مررت بها؟ قال: تجربة مؤلمة جدا، حفرت نهرا كبيرا للحزن في قلبي. داهمني رجل وفي يده سكيننا، هوى بها فتلافيتها، هوى بها ثانية فتجنبتها وهربت، لحق بي والسكين في يده. أنقذني منه أبي الذي رباني وسلمه للشرطة، لكن الذي ألمني أنه قال في اعترافاته: هذا هو الأعرور الدجال الذي سيظهر في آخر الزمان وسوف أقتله تقربا لله.

التقت القناة أيضا بالمؤذن مربي شُطْرَة. التقت به لتستكمل إضاءاتها حول شُطْرَة. سئل عن الدقيقة الأولى وعن الساعة الأولى وعن اليوم الأول والأسبوع الأول والشهر الأول والسنة الأولى. أجاب المؤذن فقال كانت الدقيقة الأولى دقيقة صدمة حقيقية، أضاف: أن تفتح كرتونا مهماً أمام باب المسجد لتجد فيه طفلاً يخيفك أليست صدمة؟ أضاف أيضاً: أما الساعة الأولى فإنها ساعة الصبر والتحمل، أن تصبر على طفل ساقته إليك الأقدار بهذه الحالة. قال المذيع: واليوم الأول كيف كان؟ قال المؤذن كان يوم الرضا عن النفس التي قبلت الخير وانقادت له. ابتسم المؤذن وهو يتأهب للحديث عن الأسبوع الأول.

ابتسم وقال: كان أسبوع التعلق بالطفل. ألفنا شكله، أحببنا صوته، جعلناه شريكنا الثالث الرئيس في غرفتنا القريبة من المسجد. جاء الشهر الأول ليحمل لنا تفاصيل جديدة عن ضيفنا الجديد، زارنا محسن كبير واعترف. اعترف أنه هو من جاء بالطفل وأعطانا أوراقاً تخص أبويه، تخص أبيه وأمه الذين قضت عليهما جريمة قتل مروّعة.

كاد المؤذن أن ينسى الحديث عن السنة الأولى. استغرق في نوبة حزن عميقة. هرب المذيع إلى زوجة المؤذن وسألها عن السنة الأولى؟ أجابت: كانت سنة الخوارق المبكرة. ينام شُطْرَة بعين واحدة ويترك الثانية مفتوحة، يبتسم لذوي القلوب الرحيمة ويتجهم لأهل القساوة، ينمو بشكل خارق للعادة، يزداد ظهره تقوساً فتزداد عضلات يديه ورجليه مرونة.

كنا نحجبه عن الناس. نمنع زيارتهم له إلا قليلاً، نشفق على قلوبهم من رؤيته. حدة ظهره، عينه الطافية على وجنته كأنها جمرة متقدة، محياه الذي يستدني كل صور البؤس المخزّنة في مخيال بني آدم، أسنانه اللبينة

المنشارية التي نبتت في لثة لئيمة حمراء، صوته الذي تفرّ منه الضباع، ومع ذلك كله فقد كنا نكتشف يوما بعد يوم أننا لسنا وحدنا من يحبه.

اليوم يوم القفزة المنتظرة، حان الموعد مع قفزة الهالو، أكثر قفزات المظليين خطورة ومجازفة، قفزة تبدأ من أعالي السماء، تكون حرة في معظم مسارها، ثم يفتح المظلي مظله قريبا من الأرض.

تجمع الناس من كل مكان، تجمعوا من داخل الحي ومن خارجه أيضا، شدّوا إلينا الرحال من المدن والقرى والضواحي والبادي القريبة ليشهدوا قفزة شُطْرَة.

انتشرت الكاميرات. انتشرت في كثرة كاثرة وعلى أشكال وأحجام وألوان مختلفة قنوات ومحطات سمعنا بالقليل منها وغاب عنا الكثير. وصلت إلى المكان فرق طبية كثيرة. احتشدت أيضا سيارات الإنقاذ المختلفة، سيارات إسعاف وسيارات إطفاء وسيارات تحمل آلات لا نعرفها. وصل إلى المكان نفسه خبراء ما رأيناهم قبل اليوم، اصطفوا وعلى صدورهم أسماءهم وبيانات مهامهم، حتى الدول التي قدموا منها كنا نرى بيارقها على صدورهم.

اقتعد المؤذن مقعده. اختاره على مقربة من دائرة الهبوط العظمى، يناظر عمق السماء حيننا وحيننا يتأمل حشود الناس. اقتعدت زوجته أيضا مقعدا مشابها بجوار كرسي زوجها المؤذن، تناظر السماء حيننا وحيننا تتأمل حشود الناس. أدنت فمها من أذن زوجها، قالت له: لا تتس أن تدعي لشُطْرَة، اشتركا سويا في دعوات صادقة من أجله. تحدث عن ولع شُطْرَة بالمجازفة، وصل ميله لجذب انتباه الناس عن طريق أفعال خارقة. قالت: نعم، ألا تذكر قفزته المخيفة من أعلى المنارة؟ ذكّرت به بحالة الخوف التي اتابتهما بعد القفزة فتذكر وضحك. قال لها: نعم أتذكر، وقع مكفيا على وجهه وانتظرناه دقائق

ليجلس فلم يجلس، أسرعنا نحوه وقد بلغت قلوبنا الحناجر . وعندما اقتربنا منه قفز ضاحكا وكأنه عفريت . حتى الناس يومها قالوا هو عفريت وليس بآدمي . بدأت الأمور تتسارع، تحركت بعض آليات الإنقاذ، ظهر للمدقق المحقق أن اللحظة الحاسمة قد أزفت . سمعنا صوت مذيع داخلي، ردد المذيع بعض عبارات تبددت في الهواء لكننا فهمنا منها شيئا . فهمنا أن الطائرة التي تحمل شُطْرَةَ قد اقتربت .

شرح المذيع بيث احصائيات عن هذه القفزة . فسّر معنى كلمة الهالو التي تطلق عليها، عدد أنواع القفزات الأخرى، ميّز كل نوع منها على حده، عاد للحديث مجددا عن الهالو وعن الذين قفزوا وفق هذا التكتيك، وصل بالحديث إلى شُطْرَةَ، قال هو آخر القافزين على تكتيك الهالو .

كانت الحشود غير مكتثرة بهذا المذيع، رأوا في كلامه ثرثرة لا تجدي فتيلا، تمنوا أن يسكت فقد جاءوا لمشاهدة شُطْرَةَ وليس لتلقي محاضرة عن القفز المظلي وتاريخه وأنواعه .

اعتقدت الجهة المنظمة- كما يبدو- أن إشغال وقت الناس مسألة ضرورية في انتظار الحدث، واصلوا حشد الإعلاميين لملاء فراغات الانتظار . تقدمت مذيعة أخرى - بعد المذيع- لتواصل الكلام المباح بدلا من أن تسكت عنه .

تحدثت أولا عن بطل القفزة، وصفته بأحذب نوتردام العصر، قالت عن أحذب نوتردام الحكاية أنه قد خرج من الكنيسة محمولا على الأكتاف وسيخرج أحذب نوتردام العصر من مغامرة اليوم محمولا على الأكتاف أيضا . قالت أيضا في تفسير اسمه أنه جاء على اسم الشُطْرَةَ وهي أصغر وحدات الكيل في هذا الحي، ثم أوجزت بعض مغامراته، توقفت طويلا عند قفزته التي

حبست الأنفاس عندما قفز من أعلى منارة في الحي من ارتفاع قارب الأمتار العشرة.

سمع الناس أزيز طائرة بعيدة، اشربوا بأعناقهم بعيدا نحو أعماق السماء. ضاع الأزيز لسوء الحظ مرة ثانية، ضاع تحت سطوة مذيع آخر. يبدو أن الجهة المنظمة قد عادت لشغل الناس بالكلام، تحدث مذيعها عن الثمان كيلات التي تفصل بين الطائرة وبين موقع سقوط شطّرة، قال عن قفزة شطّرة أنها ستكون حرة في معظم هذه المسافة بينما سيفتح المظلة في آخر المسافة، ثم أضاف أن تركيبة جديدة من المظلات سوف يستخدمها شطّرة في تجربة اليوم. قطع المذيع ثرثرته هذه فجأة، أعلن أن الطائرة على وشك الوصول إلى نقطة البداية. انتبه الناس إلى نقطة موعودة فوق رؤوسهم، سمعوا الأزيز جيدا وروأوا الطائرة مثل صليب صغير أسود وهي تحوم في العمق البعيد فوق رؤوسهم.

حلّقت طائرة هرقل فوق المكان. ألقت بالمجازف العفريت شطّرة والناس تحديق. أشار أحد الواقفين قريبا مني بسبابته، قال: ها هو شطّرة لكني ما رأيت أحدا. رأيته بعد أقل من دقيقة نقطة سوداء صغيرة تهوي بسرعة نحو الأرض، بقيت عيناى معلقة به وهو يهوي، داخلني شعور أن رقبته القصيرة تلك ستدخل في حذبه بمجرد أن يرتطم بالأرض، داخلني ذلك التشاؤم لأنه كان يسقط بسرعة مريعة والمظلة تبدو ساكنة وكأنها معطلة لكنها تحركت أخيرا.

انفتحت المظلات بصورة آلية مع آخر ثواني القفزة. خف تسارع القفزة قليلا، وفجأة غيرت اتجاهها نحو الأعلى. أخذت في الصعود وأنفاسنا محبوسة في صدورنا. كان شطّرة معلقا فيها مثل دمىة وهي تصعد وتبعد نحو طبقات السموات العلى.



السلسال



أمي وزوجتي وأنا داخل السيارة. ثلاثة فقط، لكن ما يدور في رؤوسنا كان مثل علبة ألوان تتدرج ألوان أقلامها من الأبيض إلى الأبيض. تسير بنا السيارة مثقلة بالقلق وأشياء أخرى، تتهادى بنا فوق لسان الطريق الممتد بين قريتنا وبين المستشفى.

أحمل على كاهلي وهناً لا يعادله وهن. أعجز عن مد يد العون لزوجتي التي تتأكل شجاعتها تحت الأم الطلق، أعجز عن احتواء طريق طويل يعم في الطول أكثر كلما ارتفعت وتيرة القلق وكلما زاد ضعفنا داخل السيارة. أعجز أيضاً عن اتخاذ القرار المناسب لهذا الأنين: أُسرِعُ السيارة فوق طريق متآكل فتزداد اضطراباً أم أبطئُ بها فيبطئُ بنا الطريق؟ الزمن والمسافة والألم وقدرة الكائن الضعيف على النفاذ هذه هي المعضلة. أتقاسم مع أمي وزوجتي وعشاء السفر. ضجر المسافة، قلق اللحظة، لكن أمي هي فقط من يدير الموقف داخل السيارة. تدير كل شيء وفي ذات الوقت تسرد علينا حكاية ديرة بني كلب.

أفتح الزجاج الذي تجتمع أعنته في يدي ثم أغلقه إذا طلبت أمي ذلك. تضيق نفوسنا ذرعا بالهواء الأسن فتقرأ ذلك على وجوهنا، فإذا طلبت هواء نقيا ودخل معه الغبار والضجيج وهبات السموم التي تشوي الوجه قالت: أغلق، أغلق. تقول استعجل قليلاً. أدوس على بنزين السيارة فنتصاعد التأوهات فتترجع أمي. تُلقِي نظرة على وجه زوجتي فيشتعل القلق فتقول استعجل قليلاً. أسمع قلقها بأذنين واعيتين فأدوس البنزين فنتصاعد التأوهات فتترجع أمي. وسواء علينا؛ أسرع بنا السيارة أم سارت على مهل فإن الطريق باقٍ على حالته. لا يتحرك قيد أنملة، وكل مسافات القلقين هكذا، بليدة مثل البازلت الذي تتمدد فوق سريره.

تمتدح زوجتي، أُمي تمتدح زوجتي على خلاف الحموات. تمتدحها، وتعتبرها من جيل القانئات الصابرات ذلك الجيل الذي تنتمي هي إليه. جيل مكافح لا يشتكى برد الشتاء ولا لهيب الصيف. تمدح وزوجتي تسمع تلك الأوصاف فتزداد إمعانا في التحمل. تثني أيضا على الجنين وتقسم أنه ولد وتتمنى ألا يكون مثلي. أُمي تعيرني بحقبة من الدهر تلبسني فيها بوهيمية موغلة في الضياع، حقبة تعبتُ هي منها، وتعبتُ منها أُمي، وتعبتُ منها أنا، لكنها حقبة مضت وانتهت على أي حال وأُمي ما نسيت. تغيرت حياتي جملة وتفصيلا ومع ذلك فأُمي لاتزال تتمنى ألا يكون ولدي مثلي!

سردت ضياع أم وابنتها، وبدلا من طريق الحج استلمتا الطريق إلى ديرة بني كلب. أزعج ضجيج الشارع أُمي فسكتت وطلبت إغلاق الزجاج. أغلقته فعدت لتروي زواج البنت وموت أمها. كان العريس كلبا، لكنه مثل بقية عشيرته يتنكر في شكل آدمي. كانت العروس تتحين فرصة الهرب من ديرة بني كلب لكنها حملت هناك وأنجبت.

ضايقتها الحرّ فسكتت عن الكلام المباح وطلبت تشغيل التكييف. اشتغل فعدت لتكمل قصة الفتاة التي حانت لها فرصة الهرب من ديرة بني كلب، فهربت ومعها طفلها الذي يعود لأب من بني كلب، وعندما أخذتها أقدام النجاة إلى ديرة بني ناس نزلت بابنها الوليد في دار الشيخ. أحاطت بها عناية زوجة الشيخ أئما إحاطة. قدمت لها الطعام الذي غاب عنها منذ عام، أعدت لها الفراش الوثير الذي لم يلامس جنبها مثله منذ أشهر، نامت معها في غرفة واحدة، كل واحدة منهن على طرف وبينهما طفلان، طفلها وطفل الضيفة ونام الجميع. نام الجميع، غير أنه وعند منتصف الليل استيقظت الأم الضيفة على صوت ما. فتحت عينيها، هالها أن ولدها يجلس متربعا، على فمه بقايا دماء وحوله أشلاء طفل.

رأت أُمِّي أضواء المدينة فقالت: لا إله إلا الله. معها حق في تلك المهابة، ففي آخر منعطفات الطريق كانت هناك هالة من النور تتاحر السماء. أخذني تهليل أُمِّي من عوالم حكاية شعبية قديمة إلى وهج المدينة. ذلك الوهج الذي وإن لم يسلب مني مصابيح قريتي، إلا إنه كان يأخذ معه روحي في معارج النور. ما كان هو الأَجْمَل في خيالي يوماً، غير أنني كنت استشعر هيئته وأقرأ جلاله. أدلف نحوه، قلبي وجسدي وسيارتي وما ملك فؤادي. كان قويا يبدد كل ظلمة تسكن في زوايا روحي وكنت أسأل دائماً: لماذا ترتفع أضواء المدينة إلى عنان السماء؟ هل هي أقرب منا إلى الله؟ هل المدن تحب الله أكثر مما نحبه في القرى؟

في ساعات الفجر الأولى تبدو المدينة أقل ضجيجاً. حتى أعمدة الإضاءة التي أضناها السهر تبدو مستعدة للنوم، والمستشفى الذي أعرفه جيداً يبدو في هذا الوقت أكثر قرباً لنا منه في أوقات أخرى كالظهيرة مثلاً. الريف الذي أتيت منه لا يشتكى من عدم وجود مستشفى. لكن أُمِّي (التي يبدو أن المشهد قد أنساها تماماً حكاية ديرة بني كلب) هي من أصرّ على مستشفى المدينة. أرغمتني على فتح ملفّ لمتابعة حالة زوجتي، ليس في حملها فقط بل قبل ذلك أيضاً.

دخلنا المستشفى من باب الخلفي: باب الطوارئ. كل المستشفيات في هذا الوقت لا تستقبل أحداً سوى الحالات الخطيرة التي من بينها حالات الولادة. الوقت وكثرة المشافي الخاصة في المدينة جعلتنا في موقف أفضل. أخذت الممرضات زوجتي ومعها أُمِّي التي أشارت بيدها إلى غرفة الانتظار. غرفة الانتظار ليست عنهن ببعيد وأنا أعرفها دائماً فهي تضم بين جدرانها الموحشة أبرد بقعة على وجه جغرافيتي الكونية. تخضع هذه الغرفة لسلطة التكييف المركزي الذي يبدو مثل القضاء والقدر لا حيلة لنا معه،

وأمام سطوته الجبارة تلك لم أجد بدا من خلع ستارة الغرفة، خلعتها برفق من مفاصلها ثم لفتتها على جسدي النحيل وألقيت بنفسي جانبا مثل خيمة تهاوت حول عمودها عند قارعة الطريق.

سرى الدفء في أوصالي وأنا متشربقا مثل دودة قز. اطمأنت نفسي، سكنت خلايا جسدي راضية مرضية. انتظر بأمل عريض خيرا سعيدا، انتظر ابني القادم من غياهب المشيمة وأتذكر تلك الحكاية المخيفة. لك أن تضحك حتى تظهر نواجذك ولك أن تصف كلامي بالهواجس السوداء، لكننا في نهاية المطاف سنتفق أن حكاية أمي قد توغلت عميقا في نفسي.

أفْتَحَمْتُ أمي غرفة الانتظار التي أتكوم فيها على نفسي يحف بي خيال من عواء ونباح. خيال هبط عليّ مع دفء الستارة الثقيلة التي أُلْف بها جسدي. ناولتني ورقة وقالت: طلبوا امضاءك، وضعت سبابتها إلى حيث يجب أن يكون امضائي كما قالوا لها. تناولت الورقة ووضعت امضائي ثم قلت لأمي: هي العملية إذن؟ قالت أمي: لا، ليس تماما. الحبل السري ملتف حول رقبة الجنين، ربما استدعت الحالة تدخلا جراحيا وربما لا.

نهضت من الزاوية الحادة. حملت جسدي المسجّى بستارة سميكة. مشيت والستارة ملفوفة حولي كأنها قد باتت جزءا مني. راق لي صف المقاعد المعدنية المغروسة في برد الغرفة، غرفة الانتظار أو غرفة الإعدام بردا. ألقيت بنفسي فوق مقعد منها، لم أتشكّل كما يريد لي المقعد أن أكون، تمددت فوّهة بشكل مائل تتماس حوافي مع حوافه عند طرفي المقعدة والظهر.

بدا جسدي مشدودا وعيناوي سابحتان في سقف تحتشد فيه المصابيح وزخارف جبسيه ذات وحدات متناظرة. وحدات تغري بالتأمل والمقارنة. أتمدّد مثل جنازة تنتظر صلاة الميت الحاضر، أعد الدقائق والثواني، أنتظر عودة

أمي ثانية ومعها كل البشارات، سلامة زوجتي وسلامة ولدي القادم إلى هذه الدنيا وأسئلة أخرى.

أسئلة أخرى اتحرق شوقا لطرحها، أطرحها على أمي ولن يفهم أبعادها من أحد غير أمي، وحدها التي تعرف تفاصيل الحكاية ووحدها التي تهتم كثيرا بالتسلسل الجيني والسلاسل الذهبية. أسئلتني عن ملامح زوجتي هل تغيرت؟ هل أخذت شكلي؟ هل استطال وجهها ليشبه وجهي؟ هل نبتت لها مخالب مثلي؟ هل امتلأت عيناها بالبريق المحير؟ هل كانت تعوي بعد النجاة من الولادة؟ هل ولدي مثلي؟ هل يبكي أم يعوي؟ واسئلة أخرى عن حماتي، أم زوجتي. كيف أجعلها وليمة في حفل ختان ولدي كما فعلوا بالأم في الحكاية؟

الفتاة المسكينة - في الحكاية - فقدت أمها منذ اللحظة التي جاء فيها ابنها إلى الحياة. ما رأتها ولم تقف إلى جانبها وهي التي لا تفارقها أبدا خاصة في الظروف الصعبة. توافدت عليها المهنئات من كل مكان إلا أمها. سألت زوجها الكلبى أين أمي؟ صمت هنيهة، علت وجهه خلال صمته مسحة حزن، أغلق الوجوم نوافذ وجهه، قال لها: البقاء لله، لقد ماتت وانخرط في البكاء. وجمت الفتاة. جفت. بدت مثل شجرة يابسة. أضاف وهو يربت على كتفها: يتم الان سلخها وتقطيعها وتجهيزها لإطعام القبيلة في مناسبتنا العظيمة هذه. صرخت بكل ما في قاع الحنجرة من فزع، تقيأت على وجهه وصدرة، دفعته بيدها وخرجت.

دفعته بكل قوتها رغم متاعب النفاس. خرجت من الغرفة. خرجت لا تلوي على شيء، مشت، عبرت الفناء حتى وصلت شقّه المقابل. وقفت أمام الذبيحة المعلقة بعرقوبها الأيمن في كُلاب ثابت في طرف الفناء. بكت بحرقه لا وصف لها. رأت أمها ذبيحة معلقة، انسلخ الجلد عن قوائمها، استقر في

منتصف جسمها منسدل على أكتافها. الأكتاف ظهرت واضحة ولكن بلا رأس. كفاها كانا بارزين من تحت الجلد المسدل. تناولت كف أمها الذبيحة. الكف الذي لم يغادره جماله رغم تداخل مساحات الحناء وبقع الدم، تناولته ثم انحنت تقبل الكفّ ظاهرا وباطنا.

قررت منذ تلك اللحظة أن تهرب. تهرب وتقتل الطفل الذي سيغدو مثل حبل يشدها إلى هؤلاء القوم، طرف منه في قدمها والثاني مشدود إلى وتد في ديار بني كلب. صعدت إلى حيث ينام، حاولت خنقه، حاولت مرة ومرتين وثلاثا ثم حملته على يديها وخرجت. نفذت بجدها وهم مشغولون بذبيحتهم، ابتعدت عن البيت، ابتعدت عن قرية زوجها، عن ديار بني كلب، ابتعدت حتى دخلت ديار بني ناس وحلّت ضيفة عليهم.

خرجتُ أنا من صندوق الذاكرة عند تلك الفاجعة. رفعتُ رأسي ألقبها في جنبات الغرفة. وجدت أمي معي في غرفة الانتظار، اقتحمت الغرفة ثانية وهي تشتم أحدا. قالت أخرجني الأطباء من غرفة الولادة. أخرجوني لكن ذلك لا يهم، لا يهم مادامت الولادة ستتم طبيعية. قالت ذلك فما أتمت ما قالت حتى تناهى إلى سمعينا صرخة طفل، انفجرت أساريرها ثم قالت: فديتك. ضحككُ وقلت: وما يدريك يا أمي لعله طفل آخر؟ أجابت بثقة: ليس في المستشفى حالة ثانية.

نسيت أمي على مقعد الانتظار. اتجّهتُ نحو النافذة كالمسحور. أطلت على مدينة هائلة هادئة تنتظر حمّام الصباح، وبلا وعي شرحت في العواء بكل ما في قاع الحنجرة من بأس.

دييب الفوضى



في زاوية قصية من المقهى العتيق، على منصة رابية. جلس الحكواتي والناس حوله مقنعي رعوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم وأفتدتهم هواء. تناول الكتاب الجديد وشرع يحكي. مرة من الكتاب، ومرة من الجمجمة، مرة يسرد سردا ومرة يمثل ما يقرأ.

قال الحكواتي: قال دبشليم الأسد لبيدبا الفيلسوف وهو رأس البراهمة: هات لنا حكاية من حكاياتك التي تمثل قصة اثنتين جمعت بينهما أواصر المحبة، يقطع بينهما الكذب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء فيكون الضيق بعد السعة والخراب بعد العمار. أجابه بيدبا: اعلم أنه كان بأرض دستانود رجلٌ شيخٌ كبير وكان له ثلاثة بنين. وكان هؤلاء الثلاثة كما قال المثل: أكل ومرعى بلا صنعه. فلما بلغوا أشدهم أسرفوا في مال أبيهم، أسرفوا دون أن تكون لهم حرفة أو صنعة تعوّض ما أسرفوا. غضب أبوهم ذات يوم وطردهم. نصحهم بعدم الارتهان للكسل، وأمر كل واحد منهم أن يضرب في أرض الله بحثا عن رزقه.

انطلق أكبرهم نحو أرضٍ يقال لها ميون. انطلق فأتى في طريقه على مكانٍ فيه وحلٌ كثيرٌ، ومعه عجلةٌ يجرها ثوران. يقال للثور الأول شترية ويقال للثور الثاني بندبة. غاصت ساقا شترية في الوحل، حاول الشاب ومن حوله تخليص الثور شترية، حاولوا حتى بلغ منهم الجهد فلم يقدرُوا، فقرر ترك الثور ومعه من يحرسه حتى يجف الوحل فيأتي به. بات الرجل الحارس يراقب الثور شترية حتى ضجر وتبرّم واستوحش فترك الثور ولحق بصاحب الثور. لحق به وتردد في أن يفاجئه بما كان. قرر التمهيد للخبر الفاجع، مهّد له فعلا بخطبة جاء فيها: إن الإنسان إذا انقضى أجله وحانت منيته فهو وإن اجتهد في تجنب الهلاك لم يغن ذلك عنه شيئا، شأنه شأن الرجل الذي سلك

مفازةً فيها خوفٌ من السباع، فلما سار غير بعيد اعترض له ذئبٌ من أحد الذئاب وأشدها ضراوة وفتكا.

صرخ زبون في وجه الحكواتي: نريد قصة الثور شترية، هل خلص من الوحل أم لا؟ تجاوب جمهور السامعين في المقهى مع صرخة الصارخ، طلبوا من الحكواتي متابعة الحكوي وسألوا السؤال نفسه: هل خلص شترية من الوحل أم لا؟ أجاب الحكواتي وهو يداري غضبه: بل خلص. خلص وانطلق إلى مرجٍ مخصبٍ كثير الماء والكأى مكث فيه حتى سمن. امتلأ لحما وشحما حتى تباعدت أضلاعه، داخله شعور مطلق بالأمن، أمن على نفسه تماما، شرع يرفع عقيرته بالخوار حتى سمعه أسد في أجمة قريبة فاعتراه الخوف، وسمعه حارسا باب الأسد فأدركا جهل الأسد به فاعتراهما الطمع. انطلق دمنة وهو أحد الحارسين. دخل على الأسد، سلم عليه فلما لم يعرفه الأسد عرفه بنفسه. داوم دمنة على مجالسة الأسد وفي كل جلسة كان يبدي له مفاتن حكمته ومحاسن فطنته حتى أنس إليه الأسد. خلا بالأسد يوما فلما أوغلا في المؤانسة خار الثور شترية خواراً شديداً. بان الغم على وجه الأسد فوجد دمنة الباب مفتوحا ليوطد مجلسه، فاتح الأسد في الأمر فاعترف بالخوف، انتقل دمنة الانتهازي إلى خطوة ثانية من الكلام فقال: يا سيدي يا ملك الغاب، قالت العلماء: ما كل صوت يستحق الخوف وإن علا، أما سمعت قصة الثعلب الذي وجد طبلا معلقا في شجرة؟

صرخ مستمع من بين جمهور المستمعين مؤكدا أنه ومن معه قد دفعوا مالا ليعرفوا حكاية الثور. الثور فقط . لا شأن لهم بالثعلب ولا بالطبل، ولا العلجوم ولا البرغوث ولا الغراب، ولا بالأسد أيضا. ابتلع الحكواتي ريقه وخلع نظارته ونهض، حمد الله وأثنى عليه ثم بين لهم أنه لا دخل له في بناء الحكاية. حكاية كليلة ودمنة هي من حكايات الشعوب التي ترجمها ابن

المقنع، المؤلف كتب والمترجم ترجم وأنا حكيت لكم فما الذي أصنع؟ نهض مستمع آخر فجاء برأي يتوسط فيه بين رأيين، قال: أما بشأن الأسد فهو أمر مهم لمعرفة مصير الثور بينما تبدو بقية القصص الاعتراضية غير مهمة. اقترح هذا المستمع المتوسط أن تستمر حكاية الأسد والثور وأن يتجنب الحكواتي بقية القصص التي تطفو مثل فقاعات على سطح الحكاية. أذعن الحكواتي لذلك التوسط على مضض وقبل به جمهور المستمعين على مضضٍ أيضاً.

واصل الحكواتي سرده من حيث وقف: أذن الأسد لدمنة بالذهاب لاستجلاء حقيقة الصوت فانطلق. انطلق وغاب بعض الوقت دون أن يرى الثور شترية، لأنه لم يذهب للمرج أصلاً، لكنه عاد للأسد متظاهراً برؤيته للثور. قال: رأيت ثوراً هو صاحب الصوت الذي سمعت. قال الأسد: فما قوته؟ أجاب دمنة: لا شوكة له. ولكن لا يصغرن عندك أمره فإن الريح الشديدة لا تكسر حشيشة واحدة من ضعيف الحشائش لكنها تحطم طوال النخل وعظيم الشجر. ثم أضاف دمنة: وفي نفس الوقت يا مولاي فلا تهابن منه شيئاً ولا يكبرن عليك أمره. لن يفت في عضدي أن آتيك به، ولن يصعب على همتي التي امتاحها من فيض سلطانك أن أجعله لك عبداً سامعاً مطيعاً. سمع الأسد هذا القول. سرّه كثيراً. ابتسم كما يبتسم الملوك العظام ثم قال له: انطلق دمنة، انطلق يحفّ بك نور سلطاني.

انطلق دمنة إلى شترية الثور. قال له غير هائب ولا مكترث: إن الأسد أرسلني إليك لأتية بك، وأمرني إن أنت عجلت إليه طائعاً، أن أعطيك باسمه الأمان على ما سلف منك من ذنب. بُهت الثور. كظم غيظاً مهولاً وهو يسمع هذا الكلام، سأل متعجباً عن الذنب الذي يتحدث عنه هذا السبع الخامل. وسأل عن الأسد الذي أرسله، وما علاقته بالأسد بينما هو من فصيلة أبناء

أوى خالمي الذكر؟ انتفض دمنة ثم استوى على ذيله. قدم نفسه وعرف بوظيفته ومنزلته عند الأسد. أخبره أن هذا المرج هو جزء لا يتجزأ من مملكة الأسد، وأنه قد دخل مملكة الأسد وبني شحما ولحما من حشائش المرج دون أن يستأذن أو حتى يكلف نفسه بالسلام على الأسد، الأسد ملك الغابة الذي دانت له سائر السباع، أذعن له الوحش وما عظم والنمل وما دق، حتى الطيور في السماء تذعن له بالولاء. ارتعب شترية مما سمع، ظهر له ذنبه واضحا جليا، أرخى رأسه قليلا ثم تقدم من دمنة، طلب منه الأمان على أن يذهب معه تلك الساعة فيسلم على ملك الغابة ويعتذر.

عاد دمنة ومعه الثور شترية فلما دخلا نهض ملك الغابة من مكانه. أحسن مقابلة الثور وأجلسه بجواره وشرع يستطلع حكايته: متى قدمت هذه البلاد؟ وما الذي جاء بك؟ ولم تأخرت عن مقابلتي؟. قص شترية قصته منذ خرج من ديار سيده حتى غاص في الوحل وعلق به. ومنذ تمكن من النفاذ ليجد نفسه وحيدا يصرع الجوع والعطش وسطوة الجو. ثم وصف له المرج وكيف اهتدى إليه فعادت له روحه، وهنا رفع كفه مبتهلا إلى الله أن يجعل ما وجد في ذلك المرج أجرا عظيما في موازين حسنات ملك الغابة.

قال شترية الثور ما قال ثم أطرق قليلا ليضيف معتذرا: أما نسيان السلام عليك فهو غلطة، غلطة العمر، وتبقى أنت الأسد وأنا ثور الله في برسيمه يا مولاي.

هذا الجواب الذي اعتذر به شترية الثور من ملك الغابة الأسد قد نزل منزلا حسنا من فؤاد الأسد. سره كثيرا وأشبع جوعه إلى السيطرة لذلك قرب إليه شترية الثور حتى صار أخص أصحابه عنده منزلة، قربه وأكرمه وأنس به وإليه. جعله كاتما لأسراره، حاملا لأختامه، مستشارا في سرير سلطانه.

رأى دمنة أن الثور قد اختص بالأسد دونه ودون أصحابه. وأنه قد صار صاحب رأيه وخلواته ولهوه، وأن مساحات شترية الثور تزداد اتساعاً في مجلس الأسد فتأكل مساحات دمنة وتتقصها من أطرافها. حسده حسداً عظيماً وبلغ منه الغيظ كل مبلغ. تماشج لحمه ودمه مع كراهية الثور شترية. بات قلقاً مهموماً وكلما رأى الثور شترية يضاحك الأسد اشتعلت نيران العداوة والبغضاء في داخله حتى أقدم على التفكير في المباحة بينهما.

فاتح دمنة أخيه كليلة في شأن الثور شترية. وضعه داخل الصورة. مثّل له ما يدور بين الأسد وبين الثور حتى كأنه يراها. مرة كان يفعل كما يفعل الأسد فيضحك حتى يستلقي على قفاه أو حتى تظهر نواجذه. ومرة يفعل كما يفعل الثور فيطأطئ حتى تظهر قرناه وكأنهما شفرة تراكتور.

زم كليلة شفتيه بعد أن أحيط علماً بما يجري. أخذ نفساً عميقاً وقلّب عيناه في أرجاء المكان. قال في صراحة متناهية: أنت من جاء بالثور إلى مجلس الأسد فما الذي غيرك؟ جئت به بالأمس واليوم تبدي حربه؟ أجابه دمنة بوجه يأكله الهم: نعم أنا من جاء بالثور شترية إلى مجلس الأسد. نظرت بإخلاص فيما ينفع الأسد وأغفلت نفع نفسي، أغفلت نفع نفسي وغفلت عنها حتى غلبني شترية الملعون على منزلتي.

قال كليلة وقد امتلأت شرايين جبهته حكمة ودهاء: أخبرني عن رأيك وما أنت عازم عليه في ذلك. قال دمنة: أما أنا فلا أرجو أن تزداد منزلتي عند الأسد فوق ما كانت عليه. حسبي أن تعود إلى ما كانت عليه، فإن على العاقل أن يراعي أموراً ثلاثة أولها النظر فيما مضى من الضر والنفع، فيحترس من الضر ويلتمس النفع، أما ثانيها فالنظر في الحاضر فيهرب مما يضر ويستوثق مما ينفع، أما ثالثها فالنظر في المستقبل فيستتم ما ينفع ويتوقى ما يضر. وإني لما نظرت في الأمر الذي به أرجو أن تعود منزلتي

لم أجد حيلةً ولا وجهاً إلا قتل الثور شتريةً وعندها يخلو لي الجو فاستعيد مساحاتي السابقة في مجلس الأسد وفي عقله وقلبه.

قال كليلة: وكيف تقدر على قتل شترية الثور وهو أشد منك قوةً وأكرم على الأسد وأكثر أعواناً؟ ما أنت إلا سبع خامل، صغير الحجم، ضعيف القوة، فكيف تواجه خصماً كأنه صخرة قد انشطرت من جبل؟ ابتلع دمنة لعابه ثم قال: لا تنتظر إلى صغري وضعفي، الأمور ليست بالضعف ولا القوة ولا الصغر ولا الكبر فرب صغيرٍ ضعيفٍ قد بلغ من الحيلة والدهاء وحصافة الرأي ما يعجز عنه كثير من الأقوياء. أولم يبلغك أن غراباً ضعيفاً مهمشاً قد احتال حتى قتل ثعباناً أسود؟ قال كليلة: وكيف؟ قال دمنة: زعموا أن غراباً كان له وكرٌّ في شجرةٍ على جبلٍ. هنا شرع المستمعون داخل المقهى في إحداث جلبة عظيمة بأقدامهم حتى تصاعد الغبار. أدرك الحكواتي أن تلك الجلبة تخفي احتجاجاً لا ينكره، فكفّ عن الترسُّل في الحكاية وجاز عن هوامش الكلام مواصلاً حكايته.

استطاع دمنة الخامل أن يوغر قلب الأسد على نديمه الأول شترية، قال له أن شترية الثور قد اجتمع برؤساء الجند وخطط معهم للإطاحة بالأسد. عقدت الدهشة لسان الأسد. الدهشة من مقالة دمنة وليس من الثور، فالثور صديق عاقل مسالم لا يتصرف بهذه الطريقة أبداً. أعاد دمنة الكرة، قال أخبرني بذلك أمين صدوق، خصّني به فنقلته لك لتحتاط من أجلنا، نحن من دونك هباء يا مولاي. أطرق الأسد قليلاً ثم قال: لكن شترية مسالم جداً، شترية ثور قد بلغ الكمال ظرفاً وأدباً يا عزيزي دمنة. اقترب دمنة من الأسد وقال: من مأمّنه يؤتى الحذر يا مولاي. وليس عليك شيء عندما تحتاط لأمرك وأمر مملكتك. الملوك في مواجهة الشرور بين ثلاثة: ملك كئيب، وملك أكيس منه، وملك عاجز. أما سمعت بقصة السمكات الثلاث يا سيدي؟

ثار الجمهور في هذه المرة ثورة أشد. امتلأ فضاء المقهى بالأناشيد الحماسية. ظن الحكواتي أن ثورة الجمهور كالعادة، ردا على ترسل الحكاية وصداً لفتح تجاوب عن يمين نفق الحكاية وعن يساره لذلك نهض واقفا. وقف وطلب الهدوء ومراعاة تقاليد الاستماع. أقسم لهم أنه لن يخرج عن مسار قصة الثور والأسد بعد الآن. لكن ضجيج الناس لم يتوقف، اعتذر ولكن لم يهدأ الجمهور، استمر على ما هو عليه من الغليان. أعاد الحكواتي مطالبهم بالهدوء وبقاء كل مستمع في مكانه. اعتذر لما بدر منه من ترسل واستطرد وهوامش تضيع فيها حقائق الحكاية. أعاد المطالبة بالهدوء وكرر الاعتذار لكن هيهات أن يخمد البركان وقد تفجرت منه الحمم عاليا. هيهات أن يصمت هؤلاء القوم وللشارع هدير بجوارهم.

عمد مالك المقهى الى استخدام ميكروفونات المقهى، استخدمها في بث الأناشيد الحماسية، استجاب رواد المقهى فشرعوا في ترديد تلك الأناشيد. حاول الحكواتي أن يقول شيئا. صعد إلى مرتفع قريب. ناشد الجمهور أن يهدأ قليلا. لم يجد من يعره استماعا، الكل منصرف للأناشيد الحماسية ومتابعة الشارع من نوافذ المقهى.

نزل الحكواتي من فوق. اختلط بالناس. زكمت أنفه روائح العرق. خاض عبايهم مثل قندس يقطع نهرا. قطع النهر بالفعل وأمسك بأقرب نتوء في الحائط. شد نفسه بقوة حتى أطل من كوة في مستوى الشارع فرأى آلاف الأقدام. أقدام بيضاء وسوداء وحمراء وصفراء. أقدام غليظة غريبة تدوس على كل شيء في الشارع.



أسوار مدينة النحاس





"أنا الشيخ عبد الصمد. ولست على يقين بأن من تصله رسالتي هذه سوف يعرفني، لكنني احتاج للنجدة. نجدة من يعرفني ومن لا يعرفني. أنا عالق على أسوار مدينة النحاس، أسوارها عالية جدا ومكانها بعيد جدا، بينها وبين مدينتنا خمسة وعشرون بابا، لا يظهر منها باب واحد ولا يعرف له أثر. سورها كأنه قطعة من جبل أو حديد صُبَّ في قالب".

تلَقْتُ حولي وجلا ثم طويت هذه الرسالة وأخفيتها داخل فراغ بين الكتب. عاودتني الرغبة في مطالعة الرسالة مرة أخرى. تلقت حولي ثانية ثم أخرجتها، فتحتها وقرأت: أنا الشيخ عبد الصمد ولم أكمل. طويتها وأولجتها الفراغ نفسه. سحبت الغطاء وأغلقت الصندوق على الكتب وعلى الشيخ عبد الصمد وعلى نداء الاستغاثة الذي عميت عنه عيون خلق الله كلهم ورأته عيني!

منذ غادرت مقاعد الدراسة ما طالعت كتابا واحدا، ما عشقت الكتب يوما، لا في أيام الدراسة ولا قبلها ولا بعدها. حتى أمي وأبي كانا يحذراني من اقتناء الكتب لأنها بحسب تجربتهم أكثر أفواه الفقر اتساعا. كنت في كل عام دراسي وفي نهايته على وجه التحديد أتسلق تلة قريبة من بيتنا، أعتليها ومعني كتب المدرسة وكراريسها. أنزع أوراقها ورقة بعد ورقة. وكلما نزعت ورقة طوحت بها في جهة مختلفة، مرة في الشرق ومرة في الغرب، مرة في الشمال ومرة في الجنوب. هكذا تتطاير في كل اتجاه، يضيع دمها بين القبائل فلا يظفر بها أحد فتصبح وبالاً عليه، أقطع دابرها فلا أجنبي على نفسي ولا أجنبي على غيري.

يوم لا قبله ولا بعده اشتريت فيه هذا الصندوق. وجدته في سوق الأشياء البالية وما كنت يوما من مرتادي هذا السوق. أعمى الله بصيرتي فاشتريته. صندوق من عاج وسيسبان وفي داخله كتب، لا العاج يستهويني ولا السيسبان ولا الكتب ولا الشيخ عبد الصمد لكنها الأقدار ولا شيء غير الأقدار. نعم لا

شيء غير الأقدار وإلا فأين ذهبت نصائح أمي وأين غابت توجيهات أبي؟ هل تغيرت القوانين فباتت الكتب مفاتيح دفائن الأرض؟ هل تغير لون الورق ورائحة الحبر؟ هل تغيرت كيمياء فؤادي وفيزياء عقلي إلى هذا الحد؟ أي سحر قلب المعادلة فامتلاً بيتي بالكتب؟ أي ساحر قد عبث بأرقامى السرية حتى باتت الكتب تطردني من بيتي؟

يا لفتنة الغموض ويا لإغراء الأسرار. ما كادت الدقائق الخمس تمضي حتى عدت ثانية للشيخ عبد الصمد، عاودني الخوف نفسه وأنا استل الرسالة من حرزها الحريز. فتحتها للمرة الثالثة وقرأت: "أنا الشيخ عبد الصمد. ولست على يقين بأن من تصله رسالتي هذه سوف يعرفني، لكنني احتاج للنجدة. نجدة من يعرفني ومن لا يعرفني. أنا عالق على أسوار مدينة النحاس، أسوارها عالية جدا ومكانها بعيد جدا، بينها وبين مدينتنا خمسة وعشرون بابا، لا يظهر منها باب واحد ولا يعرف له أثر. سورها كأنه قطعة من جبل أو حديد صُبَّ في قالب". طويت الرسالة وأولجتها حرزها الحريز ثم سألت نفسي: هل نزل الشيخ عبد الصمد عن السور أم بقي عالقا حتى مات؟

أغلقت الصندوق ثم عاودت رفع غطاءه مجددا. قلت لنفسي: في الصندوق أشياء أخرى غير الشيخ عبد الصمد فلم لا أبحث؟. بحثت فوجدت مروج الذهب، وجدت وفيات الأعيان، وجدت ألف ليلة وليلة، وجدت بدائع الزهور، وجدت كتبا كثيرة وكنت أنتظر أن أجد بينها كتابا عن مدينة النحاس فلم أجد.

أخرجت الرسالة فلم أجد فيها أكثر مما وجدت. خطرت في ذهني فكرة: قلت لعل الشيخ عبد الصمد قد خبا خبيئة بين أحرف رسالته. قرأت الحرف الأول من كل كلمة: أ ع ع أ م ن، أ ع ج ه ب ج، مرة من اليمين وثانية

من اليسار فلم أظفر بجملة مفيدة. قرأت الحرف الأخير من كل كلمة: أ ق ل ر. قرأتها من كل اتجاه ثم توقفت عن المحاولة فلم أظفر بكلمة ذات معنى. لعنة الكتب التي كنت أحاذرها قد أوشتك أن تحل بي. قررت قضاء الساعات الثلاث القادمة في سوق الكتب، سوق الكتب على مرمى حصة من بيتي وفيه أكوام منها. كنت في الماضي أعبّر أمام هذا السوق على عجل حتى لا يصيبني ما أكره، واليوم أشد الرحال إليه طائعا مختارا. لا حيلة لي غير ذلك، فلا بد من كتاب يكشف السر، فإن لم أجد فقد أعر على من يرشدني.

الكتبي يشم رائحة الكتاب من على مسافات بعيدة، ويعرف مظان المعلومات. على الكتبيين الدلالة وعليّ المال. سيجعلهم المال يتحركون مثل الخدم طوع أمري ولا عار في ذلك، هي المصلحة لا غير. أجد الكتاب الذي أبحث عنه ويحصل الواحد منهم على المال الذي يقتات منه.

منذ لحظاتي الأولى في سوق الكتب أدركت أن باعة الكتب لا يقرأون منها سطرا واحدا. بدا لي أول بائع النقيته وكأنه هو الأمية ذاتها تمشي على قدمين. كانوا غوغائيين بما يكفي لمغادرة السوق ونسيان مدينة النحاس إلى الأبد لكن الشيخ عبدالصمد العالق على أسوارها كان يكسر إرادتي في كل مرة. تحلقوا حولي وكل واحد يؤكد أن حاجتي من الكتب مقضية ولما يعرفوا حاجتي بعد. دافعتهم حتى دفعتهم عني ثم اخترت أحدهم. اخترت أحدهم دون تمحيص. اخترته ليساعدني في مدافعة الباقيين وقد نجح. ابتعدوا عني وبقيت معه، انظارهم مسلطة علينا مثل مصابيح مخفر في ليل صحراوي بهيم؛ كأنما كانوا على يقين بأن من اخترت لن يكون الناصح الأمين.

الساعات الثلاث تضاعفت الى ست. ابتلعتُ فيها الكتب كل فراغ في سيارتي، وحتى نقودي نفذت، وخرجت مديونا لسوق الكتب بمبلغ كبير. البائع

هنا مثل طبيب في مصحّة تجارية، يكتب لك من الأدوية ما ينفعك ويكتب لك منها مالا يؤديك أيضا. وصف لي الباعة كل كتاب جاء على ذكر النحاس. كل كتاب تحدث عن أي مدينة من مدن العالم، كل كتاب تحدث عن مدينة تحت الرماد، كل كتاب تحدث عن مدينة تحت التراب، كل كتاب تحدث عن مدينة تحت الماء؛ بومبي، هركولانيوم، أطلانطا، إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد. ابتعت تلك الكتب جميعا وابتعت فوقها أمهات الحكايات والأساطير؛ ألف ليلة وليلة، كليلة ودمنة، مروج الذهب ومعادن الجوهر، غرائب المخلوقات، بدائع الزهور وحتى كتب الجنّ والعرافيت ظفرت بكثير منها وعدت إلى بيتي، عدت أحمل أسفارا لا أدري بأي سفر منها أبدأ. كانت الصدمة الأولى عندما اكتشفت أن بعضا مما اقتنيت هو موجود سلفا في صندوق الكتب. بل كل كتاب في الصندوق قد ابتعت مثيلا له من سوق الكتب. لم يتفرد صندوق السيسبان إلا بالشيخ عبد الصمد، والذنب في خطأ التكرار هو ذنبي أنا لوحدي. لو كانت ذاكرتي على خير ما يرام لما اقتنيت شيئا هو عندي في الأصل. وكانت الصدمة الثانية أن كمية هائلة من الكتب تتكّوم فوق بعضها وقد خلقت تلاً مزعجا داخل الغرفة. لا هو بالناعم فأفترشه ولا هو بالمتماusk فأتسنم ظهره. والصدمة الثالثة أن الباحث عن مدينة النحاس في هذا الكوم من المجلدات هو كالباحث عن ابرة داخل كوم مشابه لكنه من القش.

عمدت إلى بقايا من ألواح ودُسر، كان أبي رحمه الله يحفظها في خزانة لنا. جمعتها وشرعت في تركيبها رفوفا فوق بعضها، تحمل كتبتي لتقرّ بها عيني فقد بات عندي مكتبة. اشتغلت على هذه الفكرة بضع دقائق ثم توقفت. توقفت حتى لا يضعب مني هدفي. ما الذي جاء بهذه الكتب إلى بيتي وكانت قبلها متواضعة مستريحة مطمئنة في سوق الكتب؟ أليست مدينة النحاس

والشيخ عبد الصمد العالق على أسوارها؟ بلى هو ذاك وعليّ أن أحبس جهدي وجهيدي في هذا المسار حتى يتمّ الله أمرا كان مفعولا.

عليّ أن أقترس هذه الكتب، أقترسها مثل ضبع متوحش إلى أن أجد مدينة النحاس المخبأة في ثناياها أو أعلق على أسوارها.

بدأت بكتاب عن مدينة بومبي. قرأت فيه صفحتين ثم توقفت. هذه ليست مدينة نحاس، مدينة النحاس أخذهم الله بصيحة فهم على حالهم الذي أُخذوا عليه. أهل بومبي مثل أهل مدينة النحاس لكنهم ماتوا تحت رماد البركان الحارق وليس بفعل صيحة. سألت نفسي: لم لا يكون الرماد ناتجا عن صهير نحاس قذف به البركان فوقهم؟. أجبت: هذه مسألة شائكة، معقدة وطويلة، ثم إن الشيخ عبد الصمد لم يقل بومبي، الشيخ قال مدينة النحاس وعليّ أن أجد في هذه الكتب مدينة اسمها مدينة النحاس وإلا ففي الوقت متسع للتأويل. حينئذ أقول هي مدينة بومبي وقد أطلق عليها العرب مدينة النحاس بسبب كيت وكيت.

تذكرت الآن أن البائع الذي ابتعت منه كتاب ألف ليلة وليلة قد غمزني في ساعدي. غمزني غمزة كادت أن تجرد ساعدي من إهابه وكدت أن أصغعه لولا أن قال: في الليلة الثامنة والستين بعد الخمسمائة. قلت ليلة ماذا؟ قال فتش في الليلة الثامنة والستين بعد الخمسمائة يا عبد الله. أظهرت تلكوا في فهمه فاقترب مني وقال: الكتاب مقسم إلى ليال، حكايات الكتاب مبسطة على مدى ألف ليلة وليلة. ستجد مدينة النحاس في الليلة الثامنة والستين بعد الخمسمائة. قال ذلك ولفّ الكتاب في لفافة ثم أضاف: خذ الكتاب إلى بيتك وهناك ابحث عن الليلة الثامنة والستين بعد الخمسمائة ولا تطل الوقوف هنا فالكتاب ممنوع من التداول. انصرف الان فإن لم تجد مدينة النحاس فأرجع الكتاب وخذ مالك.

حمدت الله أنني تذكرت ذلك الآن، بحثت عن الليلة الموعودة، دخلت في غابة من الليالي لكني واصلت البحث، وجدت الليلة الثامنة والستين بعد الخمسمائة. "وفي الليلة الثامنة والستين بعد الخمسمائة قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجني الذي في العامود لما حكى لهم حكايته من أولها إلى أن سجن في العامود، قالوا له أين الطريق الموصلة إلى مدينة النحاس فأشار لنا إلى طريق المدينة. وإذا بيننا وبينها خمسة وعشرون باباً لا يظهر منها باب واحد ولا يعرف له أثر. وسورها كأنه قطعة من جبل أو حديد صب في قالب. نزل القوم ونزل الأمير موسى والشيخ عبد الصمد".

وضعت سبابتي على كلمة الصمد وتنفست الصعداء، أخذت نفساً عميقاً فقد فرحت كثيراً بلقاء الشيخ عبد الصمد.

واصلت الملكة شهرزاد: "اجتهدوا أن يعرفوا لها باباً، أو يجدوا لها سبيلاً فلم يصلوا إلى ذلك. قال الأمير موسى: يا طالب بن سهل. كيف الحيلة في دخول هذه المدينة ولا نعرف لها باباً ندخل منه؟. قال طالب: أصلح الله الأمير. نستريح يومين أو ثلاثة نتدبر بعدها الأمر. قالت: فعند ذلك أمر الأمير موسى بعض غلمانه أن يركب جملًا ويطوف حول المدينة لعله يطلع على أثر باب، أو موضع قصر في المكان الذي هم فيه نازلون.

ركب بعض غلمانه وسار حولها يومين بلياليهما يجد السير دون كلل. في اليوم الثالث أشرف على أصحابه، وهو مندهش بما رأى من طولها وارتفاعها. ثم قال: أيها الأمير إن أهون موضع فيها هذا الموضع".

قالت الملكة شهرزاد: "ثم إن الأمير موسى أخذ طالب بن سهل والشيخ عبد الصمد. صعد بهم على جبل مقابل للمدينة مشرف عليها. طلوعوا ذلك الجبل، رأوا مدينة لم تر العيون أعظم منها، قصورها عالية، قبابها زاهية، دورها عامرة، أنهارها جارية، أشجارها مثمرة، وهي مدينة بأبواب منيعة لا

حس فيها ولا انس، يصفر البوم في جهاتها ويحوم الطير في عرصاتها وينعق الغراب في نواحيها يبكي على من كان فيها".

ثم أضافت الملكة شهرزاد: وقف الأمير موسى يتندم على خلوها من السكان، وخرابها من الأهل والقطن. حانت منه التفاتة إلى جهة رأى فيها سبعة ألواح من الرخام الأبيض. دنا منها فأمر أن تُقرأ كتابتها. تقدم الشيخ عبد الصمد وتأملها وقرأها فإذا هي بالقلم اليوناني". وضعت سبابتي هنا وسرحت قليلا: بالقلم اليوناني؟ وسألت نفسي: أهي بومبي دون أن ندري؟

قالت شهرزاد أن الشيخ عبد الصمد قرأ في بعض الألواح: يا ابن آدم، ماذا أغفلك عن أمر هو أمامك؟. أما علمت أن كأس المنية لك يترع، وعن قريب له تتجرع؟ أين من ملك البلاد وأذل العباد وقاد الجيوش ذات العدة والعتاد؟ نزل بهم والله هادم اللذات ومفرق الجماعات، مخرب المنازل العامرات، وها قد نقلهم من سعة القصور إلى ضيق القبور. قالت الملكة شهرزاد أن الأمير موسى قد بكى حتى ابتلت لحيته بالدموع. بكى فأبكى كل من كان معه. حتى الشيخ عبد الصمد، بكى بكاء مرًا وانتحب انتخابا أو هن جسده. وما زال يبكي وينتحب حتى غشي، وسقط بينهم وتمدد كما يتمدد الميت وظل مغشيا عليه برهة من الزمن ثم استرجع.

قالت الملكة شهرزاد: نزل الأمير ورفاقه من على الجبل حتى وصلوا لمقر إقامتهم. أقاموا بقية يومهم يخططون بعصيهم على الرمل، يدبرون الحيلة في دخول المدينة. قال الأمير موسى لوزيره طالب بن سهل ولمن حوله من خواصه: كيف تكون خطتنا لندخل المدينة؟ كم أتوق لمعرفة ما فيها من عجائب، ما يدريكم لعلنا نجد فيها أمرا يسرّ قلب أمير المؤمنين فيكون فيه طريق لنا إلى قلبه.

قال الوزير طالب بن سهل: أدام الله نعمة الأمير. أقترح أن نصطنع سلماً نصعد عليه، فإذا صعد منا فريق سحب السلم وأسقطه من الجهة المقابلة لعلنا نصل إلى الباب من الداخل. صمت الأمير موسى برهة ثم قال: هذا ما خطر ببالي وهو نعم الرأي. قال ذلك ثم هزّ هامته وفرق الوسطى مع الإبهام دليل العزيمة. دعا بالنجارين والحدادين وأمرهم أن يسووا الأخشاب، ويصنعوا سلماً مصفحاً بصفائح الحديد فصنعوه. مكثوا في عمله شهراً كاملاً حتى أحكموا صنعه وأقاموه بجذاء السور. جاء السلم مساوياً للسور، ما زاد قيد أنملة ولا نقص وهذا من العجائب.

قالت الملكة شهرزاد: تعجب الأمير موسى من ذلك الاتفاق. شد على أيديهم فردا فردا وقال بارك الله فيكم كأنكم قد علمتم ارتفاع السور على وجه الدقة وهذا من حسن صنعتكم. التفت الأمير موسى للناس من حوله، قال بصوت مرتفع: من يطلع منكم على هذا السلم؟ ويصعد فوق السور، ويمشي عليه، ويدرس إمكانات النزول إلى أرض المدينة لينظر كيف الأمر ثم يخبرنا بكيفية فتح الباب؟ قال أحدهم: أنا أصعد عليه أيها الأمير. قال له الأمير موسى: اصعد بارك الله فيك. صعد الرجل على السلم، بلغ أعلاه، صعد على السور، قام على قدميه، شخص ببصره تجاه المدينة كالمسحور، صفق بكفيه وصاح بأعلى صوته، رمى بنفسه إلى داخل المدينة فانهرس لحمه على عظمه والعياذ بالله.

قالت الملكة شهرزاد: خاف الأمير موسى مما رأى فتراجع عن الفكرة. قال إن كنا نفعل هذا بجميع أصحابنا لم يبق منهم أحد فنعجز عن قضاء حاجتنا وحاجة أمير المؤمنين. ارحلوا فلا حاجة لنا بهذه المدينة الملعونة. قال بعض الناس: لا تستعجل، لعل بيننا من هو أثبت منه يا سيدي الأمير.

صعد ثان وثالث ورابع وخامس وسادس وسابع، فما زالوا يصعدون من ذلك السلم إلى السور واحداً بعد واحد، إلى أن مات منهم اثنا عشر رجلاً. يصعد الواحد منهم درجات السلم كأنه الإعصار، يقف منتصباً على السور كأنه قرن عرفه، ثم يصفق بيديه ويهوي.

رأى الشيخ عبد الصمد ذلك. عزّ عليه أن تموت الفكرة فقال ما لهذا الأمر غيري وليس المجرب كغير المجرب. قال له الأمير موسى لن تفعل ذلك. لن أمكنك من الطلوع إلى هذا السور، لأنك إن مت كنت سبباً في ضياعنا فأنت دليلنا إلى هذه البلاد. قال الشيخ عبد الصمد لعل ذلك يكون على يدي يا مولاي، فاتفق القوم كلهم على صعوده فصعد.

قالت الملكة شهرزاد: قام الشيخ عبد الصمد من مجلسه، نشط نفسه فتمطى قليلاً. قال بسم الله الرحمن الرحيم وصعد على السلم وهو يذكر الله تعالى ويقرأ آيات النجاة. بلغ أعلى السور ثم اعتراه شبق السابقين. صفق بيديه. شخص ببصره كالمسحور. توترت أقواسه وكاد أن يلقي بنفسه لولا أن تداركه القوم.

صاح عليه الناس: لا تفعل ذلك يا شيخ عبد الصمد. لا تلق بنفسك. ضحك الشيخ عبد الصمد طويلاً ثم جلس في موضعه على السور، جلس ساعة طويلة يذكر الله تعالى ويتلو آيات النجاة، انتصب واقفاً ونادى بأعلى صوته، قال شيئاً لكن الملكة شهرزاد لم تسمع شيئاً مما قال. لم تسمع ولم يمهلهما الصباح لتسمع فسكنت عن الكلام المباح.

وفي الليلة السبعون بعد الخمسمائة قالت الملكة شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ عبد الصمد قال: لما وصلت أعلى السور رأيت عشر جوار كأنهن الأقمار. أشارت جارية من بينهن أن أقبل علينا، هذا الماء عند أقدامك. خيل لي أن تحتي بحراً من الماء فأردت أن أخوضه إليهن لولا أن

استرجعت عقلي. تلوت شيئاً من كتاب الله تعالى فكشفت عني الغطاء، صرف
الله عني كيدهن وانصرفن عني. أدركت أن ما كان ما هو إلا سحر، مكيدة
صنعها أهل تلك المدينة ليردوا عنها كل من أراد الوصول إليها. قالت الملكة
شهرزاد: بلغني أيها الملك السعيد أن الشيخ عبد الصمد رأى أن يطوف المدينة
مشياً على السور.

داهمني النوم وأنا أقرأ هذه الأسطر. داهمني وكان يباري طرفي منذ
ساعات، يغلق عيني وأفتحهما بيدي. يغلقها وأفتحها، تارة أنشغل بعيني وتارة
أنشغل بالأسطر. كانت الأسطر تقفز أمام عيني قفز الجنادب، تحولت من
قارئ إلى صائد جنادب. أرى السطر وهو يغادر مكانه ثم يطوف على هوامش
الصفحة ثم يطوف حول نفسه. يغدو حلزونا فتتخلزن عيني معه. تغوران في
قاع رأسي ثم تعود واحدة فتبحث عن الثانية حتى تلتقيان. تركت الشيخ عبد
الصمد عالقا على أسوار مدينة النحاس واستسلمت للنوم.

بُلُقاسم الطنبوري



مساء هذا اليوم سيشهد ميلاد مليونير جديد، يضاف اسمه إلى قوائم أصحاب الملايين. وسوف يكون أول بسيط يدخل تلك القوائم، وأول مليونير جاءته الملايين حبا. جاءتته بين عشية وضحاها من غير حول له ولا قوة، وسوف يصبح اسمه من الليلة: سعادة السيد بلقاسم العريبي، بدلا من بلقاسم الطنبوري. وستكون هذه هي النقلة الثانية في أسمه خلال الخمسين التي عاشها.

كانت النقلة الأولى منذ ثلاثين عاما. كان اسمه يومها بلقاسم العريبي، وعندما اشترى حذاء مستعملا من سوق المسترجعات سماه جيرانه بلقاسم الطنبوري بسبب شكل الحذاء وتقارب الأسماء وكونه ناقع زير وذاك طنبوري وكلاهما عازف ومعزوف.

أطلقوا على الحي بأكمله حي بلقاسم الطنبوري. نسبوا الحي إلى بلقاسم لشهرته الواسعة التي أطبقت الآفاق. اشتهر عند العامة والخاصة، بات معروفا للصغير والكبير بسبب حذائه وتداعيات حذائه، فقد كانت الأقدار تصاحب يوميات حذائه فتسبب له المتاعب مثلما كانت حذاء أبي القاسم الطنبوري تسبب له المتاعب أيضا.

اشتهر الحذاء لأنه قديم جدا، اشتراه منذ أيام حكومات بادت بعد أن سادت. طلبته زوجته أن يغير الحذاء، توصلت إليه، وسّطت قوما من أهله وقوما من أهلها دون جدوى. سعى أولاده في إقناعه بتغيير الحذاء، سعت بناته أيضا، لكن نوازع غير معروفة ماشجت لحمه ودمه وعصبه قد أملت عليه ألا يطيع أحدا منهم.

فاتحه شهبندر التجار. وفاتحه أمين الغرفة التجارية أيضا. قالوا له - ترفيقا لقلبه - أنت تاجر مرموق وستكون عضوا بارزا في مجلس المدينة التجاري! بينوا له أنه سوف يمثل المدينة يوما أمام تجار أمريكا وأوروبا

والصين واليابان، لكن محاولتهما أخفقت. ظل على تمسكه بالحذاء، كان يقول عنه أنه أقدم الأصدقاء الباقين على قيد الحياة. وفي كل مرة يتمزق أو يحدث به شق كان يخصف شقه برقعة. يخصف ويرقع ويخصف ويرقع حتى بات كبيرا ثقيلا تكاد لا تقدر على حمله قدماه.

دخل المسجد فالتقاه جار لا يحبه. همس في أذنه ساخرا: سمعت أن تجار المدينة سيهدونك حذاء جديدا. تظاهر بالحرص على اللحاق بالصلاة فلم يقف لصديقه، مضى مسرعا ولم يرد عليه. صلى فلما قُضيت الصلاة خرج من المسجد. توجه إلى حيث الحذاء. اعترته الدهشة عندما وجد حذاء جديدا بجوار حذائه، ظن أن هذا هو الحذاء الذي تحدث عنه جاره الكريه. اعتقد أنه هدية التجار له لذلك احتذاه ومضى.

كان الحذاء للسيد الشهبندر الجديد. جاء ليحتديه بعد الصلاة فلم يجده ووجد حذاء بُلُقاسم مكانه. استشاط الشهبندر غضبا فتحرك من وقته مسترشدا بالناس حتى وصل دار أبي القاسم. شتمه وسفّه أخلاقه وحمد الله أنه لم يقبل به بعد عضوا في السلك التجاري. شعر بُلُقاسم بالخزي. تكلم يومه بالعار، ودّ لو أنه مات قبل أن يظهر أمام الشهبندر الجديد في صورة لص أحمية. قرر أن يتخلص من الحذاء وأن يعاقب نفسه بعقاب مناسب.

رأى أن يمشي حافيا عدة أيام. تأبط الحذاء وهام على وجهه، فتش عن مكان لا يعود منه الحذاء فاختر البحر. رمى به هناك وعاد. مرّ في طريق عودته بسوق القوارير فاشتري منه بضاعة بستين ألفا، مرّ بعدئذ بسوق الطيوب فاشتري قوارير ماء ورد بستين ألفا ثانية، حمل بضاعته كلها على سيارة نقل وعاد بها للبيت. رصّ القوارير جميعا على رفوف داخل البيت تمهيدا لتسويقها كما اعتاد في كل مرة، أنهى من الرصّ والترتيب وغادر حافيا إلى مكانه في قلب السوق.

عثر الصيادون على حذاء بلقاسم في عمق الشاطئ. انتشلوه وتعرفوا عليه ورأوا إعادته لبلقاسم إذ ليس منتظرا منه أن يرمي حذاه هنا. ساروا في طريقهم إلى دار أبي القاسم، طرقتوا بابه، أعادوا الطرق، نادوا عليه بصوت عال فلم يخرج. لا حظوا أن نافذة من النوافذ مفتوحة، قالوا نقذف بالحذاء عبرها، قذفوها بالفعل ثم تركوا له بطاقة وذهبوا. وقعت الحذاء بتقلها على القوارير التي اشتراها بالأمس. وقعت بقوة فلم تبق على قارورة واحدة. عاد التعيس إلى بيته مساء، وجد البطاقة، وعندما دخل رأى المذبحة الشنيعة. رأى القوارير محطمة وحذاء اللعنة بجوارها. حمل الحذاء غاضبا، أقسم أن يدفنه على أطراف الصحراء فلا يعثر عليه أحد.

خرج إلى الصحراء ليلا وزيادة في التعمية خرج متنكرا. ابتعد حتى بلغ أطراف الصحراء وشرع يحفر، انهماك في الحفر ملثما. رآه رجال الأمن فاسترابوا، توجسوا منه خيفة، قال كبيرهم: ملثم يحفر حفرة في الصحراء؟ لعله إرهابي يدفن ألغاما. قبضوا عليه، ساقوه إلى المخفر وهناك أمضى ليلته. جعلوه وحذاه في غرفة واحدة. افهموه أن عليه أن ينام حتى اليوم التالي وبعدها يأتي مسؤول التحقيق فيتحقق منه. تقلب على جنبيه، بادلها كثيرا، تضجر، شتم الحذاء بل رفسه رفسا لا هوادة فيه. فكّر أن يخرج ولاعة سجائره فيضرم فيه النار. أخرج الولاة بالفعل لكنه أعادها، تذكر حرمة المكان وحاجة التحقيق فتراجع. دامه النوم بعد ساعات من الضيق والقلق، توسد الحذاء ونام حتى أصبح الصباح.

ظهرت براءته مع طلوع النهار فعاد إلى داره مهيبض الجناح. عاد متعبا محبطا فاقد الثقة في نفسه. قرر ألا يفتح الدكان إلا بعد حين، يفتحه عندما يستعيد توازنه فقط. دخل البيت ولم يشعر به أحد، دخل غرفته الشخصية، ألقى بالحذاء جانبا ثم أوصل الباب. فتح التلفزيون ثم أغلقه، قال

وهو يغلقه: كالمستجير من الرمضاء باللهب. فكر في قليل من النوم فلم يسعفه الحظ، فكر في جلسة مع زوجته فلم يشأ أن يعكر مزاجها بطين مزاجه. تقع عيناه على الحذاء فيرتفع توتره، يتذكر موقف الشهبندر فيمد ساقه ويركل الحذاء. يتذكر الاشتباه به، يتذكر ما لحق به في جبانة التحقيق فيشتم الحذاء، يصب عليه اللعنة تلو اللعنة.

هداه التفكير العميق إلى فكرة مذهله. تساءل في قرارة نفسه: ماذا لو قمت بتنظيف الحذاء ثم أجعله على سطح الدار. قال في نفسه: سطح الدار لا يدخله سواي، حتى لو رغب غيري في الدخول فلا بد له من مفتاح والمفتاح معي فقط. تنفس الصعداء، ابتسم، ظهرت على وجهه علامات الارتياح فالفكرة مذهلة. قال وهو يحدث نفسه: ليتني وضعت على سطح الدار منذ البداية، أضاف: لو فعلت ذلك لما أخطأت في حق الشهبندر. لو فعلت ذلك لما تطفل الصيادون وسلمت بضاعتي وقواريري. لو فعلت ذلك لما قبضت الجهات الأمنية عليّ ونمت في بيتي بدلا من نومة المخفر. استند على الحائط وهو يُذكر بالمثل الفرنسي: أن تجيء متأخرا خير من ألا تجيء. تتم: غدا وإن غدا لناظره قريب.

غادر فراشه مبكرا هذا الصباح، توضأ وصلى في بيته لأن حادثة الشهبندر باقية تعري وجهه فريا. استندى حذاء النحاس، قام بغسله جيدا، جففه وأعاد تلميعه ثم تأبطه وصعد. ارتقى السلم في طريقه لسطح الدار. فتح الباب ونفذ إلى سطح واسع كأنه المحيط، وضع الحذاء في ركن قصي. قال في نفسه وهو يهبط السلم: هنا لا يصل إليه أحد ولا تمتد له يد، السطوح بعيد وإلى ذلك فإن مفتاحه عندي في قرار مكين. خرج من وقته حفيان، استدعى سيارة أوبر وتوجه إلى محل أحذية، اشترى حذاء جميلا وركب السيارة ثانية

إلى مقر الغرفة التجارية. قرر أن يقابل شهبندر التجار وأن يجلي له حقيقة أمره وأمر الحذاء.

استقبله الشهبندر استقبال التجار. أجلسه على يمينه وتجاذاً أطراف الحديث، أطلع الشهبندر على حقيقة الحذاء. أطلعه على ما كان منه في حادثة المسجد وفي حادثة الشاطئ، عرّج على مجزرة القوارير وحسب له خسارته الكبيرة في تلك المجزرة، أتى على ذكر الارهاب واللييلة التي أمضاها في مخفر المدينة. أقسم للسيد الشهبندر أنه لم يتمسك بالحذاء بخلا، تمسك به لنصيحة أسداها له منجم خبير وقد فهم الآن كيف يشتري حذاء جديداً مع بقاء الأول في الحفظ والصون. قبل السيد شهبندر التجار اعتذار بلقاسم العرّبي وبالغ في إكرامه، عينه نائباً له ينوب عنه في شؤون التجارات الكمالية ثم افترقا. شيعه الشهبندر حتى باب الغرفة التجارية وتابعه بعين العطف حتى غاب خلف الأسوار.

خرج بلقاسم من مكتب الشهبندر مرتاح الضمير هائئ البال. أنجز تسوية كان في أمس الحاجة إليها ولطف أجواء كان حذاؤه اللعين قد عكرها. خرج في طريقه لبيته سيرا على الأقدام، شعر براحة في ذلك لأن نشوة المصالحة قد ملأت نفسه من الأساس والنفس إذا ارتاحت نشط الجسد في خدمتها. كانت له وجهة نظر أخرى في ذلك، يمشي على قدميه ليرى الناس حذاءه الجديد. يعطي الحذاء الجديد فرصة في الذبوع مثل الفرصة التي نالها الحذاء القديم فيعين الجديد ليطنغى على القديم ويدفن منظره وسيرته وتاريخه إلى قيام الساعة. حسم أمره بعد أن حسبها بدقة. يمشي على قدميه تحدثاً بنعمة المصالحة، يعطي الحذاء الجديد فرصته، يتريض، يوفر أجرة التاكسي. أربع فوائد في خطوات معدودة.

أقبل على الحي المسمّى باسمه. اقترب من الدار العامرة، أشرف عليها فلما أشرف توقف فجأة. رأى جمعا من الناس يحيط بالبيت إحاطة السوار بالمعصم. تعوذ بالله من شرور النفس ومن سيئاتها. زاده قلقا أن هناك سيارة إسعاف تقف وسط الجمع. قال في نفسه وقد خارت قواه: حسبي الله ونعم الوكيل. استجمع وتحامل على نفسه وتقدم حتى اقترب من رجل توسم فيه عقلا، سأله: ما الأمر؟ أفاد الرجل بأنه لم يستوعب شيئا، سمع الناس يتحدثون عن حذاء سقطت من علي فأصاب أحد المارة. وضع يده على كتف الرجل. سأله بقلق بالغ: وهل سلم المصاب أم مات؟ تحرك الرجل مبتعدا، ولم يترك لبلقاسم سوى كلمة لا أدري والمزيد من التوتر والقلق.

تحرك خطوات أخرى نحو الزحام. اقترب من رجل توسم فيه الصبر، سأله: ما الأمر؟ أفاد بأن قطا كان يمشي على حافة هذا السطوح. يمشي بصعوبة وفي فمه حذاء قديم، سقط ذلك الحذاء من فمه وهوى بقوة على واحد من المارة. جحظت عينا بلقاسم أكثر. جفّ ريقه أكثر وأكثر. اقترب من الرجل وسأل: ما حال المصاب؟ أفاد الرجل أنه بين الرجاء واليأس. نُجِرى له بعض معالجات في سيارة الإسعاف عسى أن يتعافى. عاد بلقاسم يسأل: وهذه الدار لمن؟ والحذاء لمن؟. ضحك الرجل في وقت لا يتسع إلا للبكاء. ضحك بسرعة وقال: الدار دار بلقاسم الطنبوري والحذاء حذاءه وكل الناس تعرفه وتعرف حذاءه. سأل بلقاسم سؤالا أخيرا: وهل ألقوا القبض على بلقاسم هذا؟ شدّه الرجل من كتفه وقال له: الناس في انتظارك هناك يا بلقاسم وأنت هنا تخرع عبطا لم تأت به الأوائل؟

تحرك بلقاسم نحو سيارة الإسعاف. تحرك وقد امتلأ وجهه خجلا وخزيا بعد أن امتلأ فؤاده قلقا وساقاه وهنا. وقف على باب الإسعاف فما أتم وقوفه حتى قبض عليه الجند. استسلم لقضاء الله وقدره، استسلم وهو يدرك

أنه قد حرّز الحذاء المنحوس في حرز أمين بعيد عن الناس، أبعدته عن الناس وغاب عنه أن هناك كائنات أخرى غير الإنسان. استسلم وحملته سيارة الشرطة، بقي هناك ثلاث ليال، نصحه الضابط خلالها بتحريز الحذاء. وأضاف: يُحرّز بعيدا عن الحيوان مثلما هو بعيد عن الإنسان. وضح له خطورة الحال بقوله: لو مات المصاب لا سمح الله فلن يحاكم القط بدلا عنك، لن يدان حتى لو جنّت بفيلم يوثق دور القط.

عاد بلقاسم إلى داره. عاد وفي رأسه فكرة جهنمية، فكرة تخلصه من الحذاء المنحوس خلاصا لا رجعة فيه. تذكر وهو في الشرطة ولع الناس بالآثار. راقت له تلك الفكرة خاصة مع نوبة التبذير التي اجتاحت المتخمين. يشتري المتخمون علبا فارغة، يشترون سلعا فاسدة لمجرد كونها قديمة، يشتري هؤلاء كل سلعة تعود لزمان الطيبين كما يروج لها أصحابها. وجد في التجارة عبر الشبكة العنكبوتية فرصة أفضل، تجنب أن يتعامل مع المواقع القائمة فهي تتقاضى رسوما باهضة فقرر أن ينشئ موقعا لبيع الأشياء القديمة. أنشأ الموقع وسمّاه زمان الطيبين. اختار له شعارا عجيبا، اختار الشعار من أفواه بسطاء مدينته: " اللي معاه ريال محيره يشتري حمام ويطيره" وعندما سألوه عن سر الشعار قال فيه إبراء لذمتي!

نزل الحذاء في مزاد علني على صفحات الموقع. نزلت له أكثر من عشرين صورة مع كل صورة نبذة عن تاريخ الحذاء. صوره بالطول وصوره بالعرض، جاء به من أعلى وجاء به من أسفل، صور ثقوب الحبل وصور الحبل نفسه وحبالا أخرى استخدمت خلال فترات تاريخية متباعدة. كتب نبذة عن بلقاسم الطنبوري، استعرض مع تلك النبذة كل كتاب أو مقالة تحدثت عن الحذاء وعن أبي القاسم. قرر أن يكون البيع لأعلى سعر يرضى به خلال أجل محدد، قرر أيضا على سبيل الترويج أن يجعل الشحن على

حسابه إلى أي مكان في العالم، قال أن هذا العرض جاء تقديرا منه لذوي
الذائقة التاريخية المميزة.

نسران و عمى الاتجاهات



أطلقت عليه رعيته اسم حامل الهم. أسموه بهذا الاسم لأن الهم كان يعلو قسماات وجهه، يكاد من يراه أو يتحدث معه أن يقول له ألف سلامة لك يا ملك الطيور. يدرك ملك الطيور أن رعيته تشاركه مأساته مشاركة وجدانية، يقدر لهم تلك التسمية ويعتبرها لمسة وفاء منهم. ورغم هذه المشاركة الوجدانية ورغم ذلك الشعور الودود من سائر الطيور إلا أن الأمر لم يتغير. المشكلة هي المشكلة والهم هو الهم. الصلعة تزداد اتساعا وتتكاثر عروقها الزرقاء، المنقار يبدو فاقعا والعينان الغائرتان يطوف بهما ارتشاء القلق، والبصر يبدو كليلا وحسيرا. أبو الحويث . النسر الملك. ملك طيور جبل نسران، الملك الذي أحبه جبل نسران وأخلصت له طيور الجبل. ها هو يذوي ويضعف وتتهالك قواه تحت وطأة الهم.

حلق أبو الحويث ذات يوم، ابتعد في تحليقه عاليا. اقترب من نجم الدبران فسلم عليه. لاحظ نجم الدبران أن صحة أبي الحويث لم تكن على ما يرام. سأله إن كانت تعترى صحته بعض الاعتلالات. زفر أبو الحويث زفرة حرى. قال له: هات أذنك يا سيد النجوم. أدنى نجم الدبران أذنه من فم أبي الحويث . أصغى إليه جيدا فهو صديقه الودود. قال أبو الحويث : مشكلتي يا سيد النجوم هي مشكلة أولادي. أضاف موضحا: ينشأ أولادي معي في جبل نسران، فإذا أتقنوا الطيران طاروا بعيدا ثم اختفوا لا يرجع منهم من أحد. تساءل نجم الدبران: لعل الجبل لا يعجبهم يا صديقي أبا الحويث، رد أبو الحويث : كلا. هم يحبون الجبل، لكنهم اذا ارتفعوا تغيرت المعالم من تحتهم واختلطت فيضيع الواحد منهم بين السموات والأرض.

فكر نجم الدبران. فكر هنيهة ثم قال: وجدتها. وجدت الحل يا صديقي. تهللت أسارير أبي الحويث، ابتسم وقد مضت عليه السنوات الطوال من غير ابتسام. قال أدركني بما عندك يا سيد النجوم. قال نجم الدبران: سأنتزع لك



من قلبي مروة بيضاء تأخذها وتذهب بها معك وتضعها على قمة جبل نسران ثم لن تضع الطريق من أبنائك بعد ذلك. فرح أبو الحويرث بهذه التقنية، ووافق عليها. لكن الدبران قال له: سوف أشرط عليك شرطا واحدا. أشرط عليك أن تأتيني بعجل سمين من عجول الأودية. استغرب أبو الحويرث هذا الشرط. استغربه لأن نجم الدبران ناري الطبع، والناريون لا يأكلوا اللحم، فما يصنع بالعجل؟ سأل صديقه نجم الدبران: وما أنت صانع بالعجل؟ أخبره أنه سيكون مهرا لكوكبة الثريا. قال خطبت الثريا من أخيها القمر فأصر على عجلٍ من عجول الأودية مهرا لها.

قبل أبو الحويرث الشرط والتزم بتنفيذه. طار من ساعته تلك حتى رأى عجلا برياً يركب في الأودية. انقضض عليه وحاول أن يطير به لكنه أخفق. أدرك أنه قد بلغ من العمر عتياً، ظهر له معنى التقدم في السن وبيانت له عقابيل الهموم، تأكد له أن أحداً لن يساعده، قرر أن يخلق ثم ينقض ثانية. خلق بالفعل. خلق عالياً ثم انقضض بسرعة دون جدوى، أخفق للمرة الثانية. حط على شجرة أثل قريبة، تأمل الوادي الفسيح، شخص ببصره إلى قمة جبل نسران، تذكر همّه وتذكر عرض النجم. قال في نفسه: لا مناص من عجل سمين أخلق به أو أموت ويتناثر ريشي في هذا الوادي لأكون حكاية للعابرين. طار من على شجرة الأثل، خلق فوق قطيع من الأبقار، شق عنان السماء ثم ناور قليلاً فلما استجمع طاقته انقضض من عليّ. انقضض في هذه المرة وبين جناحية إرادة ظفر. هوى من فوق ثم خطف عجلاً سمينا وطار في أعماق السموات. طار بعيداً والعجل معه، استمر حتى اقترب من نجم الدبران، اقترب حتى ناوله العجل. فرح نجم الدبران بالعجل، تهللت أساريره وأيقن أن اقتارانه بالثريا قريب. بادر بنزع المروة من فؤاده لكنه حذر أبا الحويرث من حرارة المروة. بين له أن المروة ماهي إلا صهير من فؤاده فهي حارة جدا.

عليه أن يدعها تبرد أو أن يراوح في حمله بين كفيه. مرة في اليمنى ومرة في اليسرى.

شعر بالغبطة والامتتان لصديقه نجم الدبران، شكره على أجمل ما يكون الشكر وطار، طار عائداً إلى جبل نسران. كان يطير بسرعة عالية، يتحرك للوصول، ينتظر وضع المروة على جبل نسران لتكون علامة ترشد أبناءه إذا حلقوا عالياً. ظل يراوح في حمل المروة بين يديه، أمسكها باليمنى فلما أحرقت المروة راحة يمينه نقلها لليسى. أمسكها باليسرى فلما أحرقت المروة راحة يسراه نقلها لليمنى. استمر في هذه المروحة والطريق باق والمسافة كأنما كانت تزيد. استمر حتى اقترب من الجبل، اقترب وكل شيء على ما يرام. ارتبكت كفاه عند اللحظات الأخيرة. سقطت المروة خلال عملية تبديل غير موفقة، هوت من عنان السماء، ظلت تهوي وهو يراقبها من عل.

توقع أن تسقط المروة البيضاء الملتهبة في سفح جبل نسران. توقع ذلك لكنها خيّبت توقعاته وسقطت على مقربة منه وليس في سفحه. سقطت على تل صخري قريب من جبل نسران. رآها وهي تسقط ورآها بعد أن استقرت فوق التل. نزل من السماء. هبط حتى استقر على مقربة من المروة، انتقل إليها، حاول حملها مرة ثانية والصعود بها إلى الجبل فلم يقدر، وجد أنها قد حفرت عميقاً في التل الصخري وان نصفها على الأقل قد انغرس في الصخر. نظر إلى الجبل فوجده قريباً من هذا التل، قال لنفسه ماتزال المروة علامة صالحة، من يراها فلن يجد صعوبة في معرفة مكان الجبل، ترك المروة في مكانها الذي سقطت فيه ثم طار نحو قمة نسران.

وصل أبو الحويرث الى جبل نسران. وصل وقد طال غيابه فوجد الطيور في لقائه. قام الهدهد خطيباً على ذؤابة من ذؤائب شجرة العدنة. تحدث عن قلق الطيور لغياب أبي الحويرث وعن فرحتهم الغامرة بعودته

سالما. نهضت بعده حجلة من طيور الحجل. حمدت الله وأُتنت عليه ثم امتدحت صحة الملك وعافيته. كانت مظاهر التعافي ظاهرة على وجه أبي الحويرث. بدت عيناه وصلعته ومنقاره في حالة من الإشراق والصفاء. تأكد لهم أن الهم الذي كان يطحن أبا الحويرث قد ولى إلى غير رجعة. رأوا والحالة هذه أن عليهم إقامة احتفال بهيج. أفاد الهدهد أن الحفل سيقام في صباح الغد وهم يلتزمون موافقة أبي الحويرث. سُر الملك أبو الحويرث بهذه الفكرة. وافق عليها وشكر شعبه النبيل على هذه المبادرة الوافية.

ارتفع عمود الفجر واقترَّ ثغر الكون عن يوم جديد. بدا صباح جبل نسران بهيّا مهيبا، وبدأت وهاده ورباه آمنة ساكنة مطمئنة. كان كل شيء في الجبل يحتفل مع الطيور، يحتفي معهم بعودة أبي الحويرث وعودة العافية إليه وزوال الهم عن قلبه. اجتمعت طيور جبل نسران كما لم تجتمع من قبل. جاء أبو الحويرث، حط على غصن باسق وحطت عن يمينه وعن يساره الأكاير وأبناء الأكاير. انتشرت النسور في سماء المكان. قدمت عرضا جويا شائقا. جاء دور الصقور فقدمت عرضها الكبير، جاء الحمام واليماز والكبيد والقماري والسمان. جاء الصفرد والفُرع والنهس. جاءت الهداهد والقنابر وقعي ذنب والحدأة والرخم. لم يبق من طيور جبل نسران طائر إلا وجاء.

احتفلوا وسلموا على أبي الحويرث ثم استأنذوه بقبول هديتهم له. أذن لهم فتقدم من بينهم ثمانية معهم صندوق من العاج المطعم بالصدف. نسر وصقر ورحم وحدأة وغراب وحجلة وحمامة وصفردة. تقدموا بخطوات واثقة حتى اقتربوا من غصن أبي الحويرث. هناك فتحوا الصندوق وتقدم الهدهد خطيبا فقال: هديتنا إلى ملك الطيور مجموعة من أجهزة جي بي اس تفيد في تحديد المواقع علّه يفيد في التحليق عاليا، شاكرين لسيدنا أبي الحويرث تشريف حفلنا وقبول هديتنا، واختتمت الطيور حفلها بالغناء الجماعي الذي ملأ جبل نسران بهجة وحبورا.



طاق طاقيّة





وفي الليلة الخامسة والعشرين قالت شهرزاد: بلغني أيها البعل السعيد صاحب الرأي السديد أن خياطاً مبسوط الرزق يحب الفرجة والسياحة، خرج هو وزوجته. جالا برهة من الوقت في أسواق المدينة وعندما سلكا طريق العودة، وجدا في طريقهما رجلاً أحذب. قالت الزوجة بالله عليك يا بعلي خذ هذا الأحذب نطعمه ونتسلى عليه ليلتنا هذه. وجه له الخياط الدعوة فأجابه الأحذب. مشى معهما إلى البيت وشاركهما الطعام. بعد برهة من الوقت استخفهما المزاح فأخذت امرأة الخياط قطعة سمك كبيرة ولقمتها للأحذب. سدت فمه بكفها لتضحك أكثر لكنه مات تحت وطأة مزاحها السخيف هذا. حاولوا إسعافه دون جدوى، قلباه ذات اليمين وذات الشمال فلما لم تظهر منه بوادر حياة، أسقط في يديهما وقررا التخلص من جثته.

قالت المتهورة لزوجها الخياط: قم واحمله واخرج. ثم أضافت فيما يشبه الخطة: سأمشي أمامك وأنت خلفي تحمله بين يديك مدثراً بملءة من حرير. قال لها مستغرباً: وأين نذهب؟ قالت: نذهب به إلى عيادة الأطفال ثم نتركه هناك ونهرب. سمع الخياط هذا الكلام فأعجبه، قام من ساعته وحمل الجثة بين يديه. سار وهي أمامه حتى بلغا عيادة الأطفال. كانت العيادة مغلقة لكنهما طرقا الباب، فتح لهما حارس العيادة فأخبراه بحاجة طفلهما لعناية الطبيب فأذن لهما بالدخول. دخلا وأدليا بمعلومات كاذبة، وبينما دخل الحارس إلى عمق العيادة لإبلاغ الطبيب هربا وتركا الجثة. استمرا في الهرب دون لفت انتباه العسس حتى وصلا بيتهما. قاما بتنظيف المكان باعتباره مسرحاً للجريمة ثم ناما وكأن شيئاً لم يكن.

وفي الليلة السادسة والعشرين قالت البعلة شهرزاد: هذا ما كان من أمر الخياط وزوجته المتهورة. أما ما كان من أمر الطبيب فإنه قد تأخر عن معاينة المريض، تأخر كثيراً لظرف خاص لكنه حضر أخيراً. عاين الطفل

فوجده ميتا. تأمل في شكله فأفزعته شكله، اضطرب حاله وظن أن ما أصاب الطفل كان بسبب التأخر في معاینته. انتظر ساعات طويلة ليأتي أبواه دون فائدة، فكر في أمور كثيرة لكنها أمور يحفّ بها الخطر. أشار عليه الحارس أن يأذن له بحمله والقذف به في مطبخ مجاور. قال هناك الكلاب والقطط ترتاد فناء محل المندي على رائحة البقايا وسوف تأكله فيختفي أثره. رحّب الطبيب بالفكرة، راقته كثيرا، أسند تنفيذها إلى حارسه الأمين ففعل وخرج بالجبّة من ساعته بينما انشغل الطبيب بتنظيف مسرح الجريمة.

قالت البعلة شهرزاد: هذا ما كان من أمر الطبيب. أما ما كان من أمر صاحب محل المندي؛ فإن صاحبه قد جاء في دوريته الليلية فرأى آدميا يقف في الفناء مستندا للحائط على الحالة التي أسنده فيها الحارس. ظن أنه لص على قيد الحياة فاقترّب منه، دفعه وصرخ فيه بقوة فسقط على الأرض. انتظر صاحب محل المندي أن ينهض اللص لكنه لم يتحرك، اقترب منه فأدرك أنه قد فارق الحياة. اضطرب الرجل كثيرا، قال في نفسه ظننت أنه هو من يسرق اللحم والأرز من مطبخنا فوكزته وليتني لم أفعل. جلس على مقعد قريب وقال: ها قد مات في فناء مطبخي وكل الأدلة ضدي. قرر أن يتخلص من الجبّة، يحملها تحت جناح الظلام ويلقي بها في عطفة السوق وكان ذلك ما حدث بالفعل.

تلقت صاحب محل المندي يمّنة ويسره. تأكد أن أحدا لا يراه، فألقى بالجبّة في عطفة السوق. تركها هناك وعاد. بعد دقائق بسيطة جاء سكران يترنح. جلس على الرصيف بجوار الجبّة من غير أن يعلم، التقت نحوها في لحظة عابره، ظن أنه لص يريد أن ينهب عمامته من على رأسه. ثارت نائرة السكران فألقى بنفسه على الجبّة، برك فوقها كما يبرك البعير فوق خصم يحقد عليه. استمر يعركه تحته بقوة ويضربه ويحمل رأسه ليضرب بها على



الأرض. جاء الحارس الليلي على صوت العراك، رأى السكران باركا على الاحدب فأمسك بيده ورفع. عندما تحسس الشخص الثاني وجده ميتا فظن أنه مات تحت وطأة معاركة السكران له. ما طلعت شمس ذلك اليوم إلا وقد تم إيداع السكران السجن والقتيل ثالجة المشرحة.

أشعلت هذه الحادثة المجالس. كانت حديث الرائح والغادي، ظلت تتصاعد حتى علم بها السلطان فقرر اعدام السكران لبشاعة جريمته. أمر بالتنفيذ الفوري دون تأخير حيث كان القتل دونما سبب أبدا. أنزلوا السكران إلى ساحة الإعدام، أزاحوا عمامته وهياؤا رقبته للسيف. وبينما السيف ينتظر إتمام بيان القصاص إذا بصارخ يصرخ طالبا إيقاف القصاص. كان الصارخ هو صاحب محل المندي، تقدم منهم وقال أنا القاتل الحقيقي قتلته في فناء مطبخي وحملته حتى ألقيت به في عطفة السوق. كشف لهم ما كشف وطلب منهم الاقتصاص منه بدلا من أن يحمل وزر قتيلين: الأحدب والسكران. أمر القاضي بتجميد القصاص حتى موعد آخر، قال أن الموعد سيحدد قريبا وطلب إخلاء الساحة. نكّر أيضا بضرورة اعتقال صاحب محل المندي وضرورة بقاء السكران رهن الاعتقال إلى أن تتضح الأمور.

اكتملت التحقيقات. اتضحت الرؤية وجاء يوم القصاص. أنزلوا صاحب محل المندي في صحن السياف والقيد في يديه وفي رجليه. بدأوا بالإعداد، أزاحوا عمامته وهياؤا رقبته للسيف، وبينما السيف ينتظر إتمام بيان القصاص إذا بصارخ يصرخ طالبا إيقاف القصاص. كان الصارخ هو طبيب الأطفال. تقدم منهم وقال أنا القاتل الحقيقي، قتلته في عيادتي الطبية وحمله حارسي إلى فناء مطبخ مجاور. كشف لهم ما كشف وطلب منهم الاقتصاص منه بدلا من أن يحمل وزر ثلاثة ضحايا: الأحدب والسكران وصاحب محل المندي. أمر القاضي بتجميد القصاص حتى موعد آخر، قال أن الموعد

سيحدد قريبا وطلب إخلاء الساحة، ذُكر أيضا بضرورة اعتقال الطبيب وضرورة بقاء صاحب محل المندي رهن الاعتقال إلى أن تتضح الأمور.

اكتملت التحقيقات. اتضحت الرؤية وجاء يوم القصاص. أنزلوا طبيب الأطفال في صحن السيّاف والقيد في يديه وفي رجليه. بدأوا بالإعداد، أزاحوا عمامته وهياؤا رقبته للسيف. وبينما السيف ينتظر إتمام بيان القصاص إذا بصارخ يصرخ طالبا إيقاف القصاص. كان الصارخ هو الخياط. تقدم منهم وقال أنا وزوجتي من قتل الأحذب، قتلناه في بيتنا. أغلقت زوجتي فمه على لقمة سمك لتضحك فمات بين يديها وحملناه سويا حتى تورط فيه طبيب الأطفال. كشف لهم ما كشف وطلب منهم الاقتصاص منه بدلا من أن يحمل وزر أربعة ضحايا: الأحذب والسكران وصاحب محل المندي وطبيب الأطفال. أمر القاضي بتجميد القصاص حتى موعد آخر، قال أن الموعد سيحدد قريبا وطلب إخلاء الساحة. ذُكر أيضا بضرورة اعتقال الخياط وزوجته وضرورة بقاء طبيب الأطفال رهن الاعتقال إلى أن تتضح الأمور.

اكتملت التحقيقات، اتضحت الرؤية وجاء يوم القصاص. أنزلوا الخياط وزوجته في صحن السيّاف والقيد في يديهما وفي رجليهما. بدأوا بالإعداد، أزاحوا عمامة الخياط وهياؤا رقبته للسيف، وأداروا ستارة حول زوجة الخياط وهياؤا رقبتهما للسيف. وبينما السيف ينتظر إتمام بيان القصاص إذا بصارخ يصرخ طالبا إيقاف القصاص. كان الصارخ هو القتل الأحذب. تقدم منهم وقال أنا القتل الذي اشترك في قتلي ستة من القتل الطغاة. قتلوني ست مرات، مت آنذاك، مت جسدا على زمن حكايات ألف ليلة وليلة لكني عشت الآن وأطالب بإعدام القتل كلهم. الخياط وزوجته المتهورة، الطبيب وحارسه الأرعن، صاحب محل المندي البليد، السكران الأردل. بُهت القاضي وبُهِت الناس جميعا، أمر القاضي بتجميد القصاص حتى موعد آخر، قال أن الموعد

سيحدد قريبا وطلب إخلاء الساحة. ذكّر أيضا بضرورة اعتقال الخياط وزوجته وطبيب الأطفال وحارسه وصاحب محل المندي والسكران، وضرورة بقاء الأحذب رهن الاعتقال إلى أن تتضح الأمور.

اكتملت التحقيقات. اتضحت الرؤية وجاء يوم القصاص، جيء بالخياط وزوجته، والطبيب وحارسه، وصاحب محل المندي والسكران والقتيل. أمر القاضي بوضع وعاء فيه قطعة سمك، يوضع وعاء أمام كل قاتل. قام حاجب المحكمة بوضع وعاء أمام كل مجرم. وضع في كل وعاء قطعة سمك. طلب القاضي من القاتل أن يتقدم فيضع قطعة السمك الأولى في فم زوجة الخياط، يضع القطعة ويغلق فمها حتى تموت. أمره أن يفعل ذلك مع البقية واحدا بعد الآخر. تقدم القاتل نحو زوجة الخياط، تركها وانصرف إلى زوجها، تنقل بينهم جميعا ثم عاد إلى القاضي. قال له: يا سيدي القاضي. إن قاضي الأرض قادر على أن يحكم للموتى. ولكن الحكم في قضيتي متروك لقاضي السماء. قال ذلك ثم استدار حتى واجه المتهمين. قال لهم: يكفي أنكم قد تدافعتم نحو الموت طلبا لتبرئة الذمة. أما أنا فليس لي عندكم شيء، الميت لا يحسن الانتقام من قاتله.



المحتويات

صفحة	ميدان الاشتباك	عنوان القصة	م
٣	الإهداء		
٥	رواية دون كيشوت	سفوح الجوج	١
١٧	ألف ليلة وليلة (قصة جراب العجمي)	أجربة التاويل	٢
٢٥	كليلة ودمنة	حمام وثمان	٣
٤١	ألف ليلة وليلة (قصة معروف الإسكافي)	مراثي بني إسكاف	٤
٤٩	رواية أهدب نوتردام	شطرة	٥
٥٩	حكاية ديرة بني كلب (حكايات شعبية المطرية)	السلسال	٦
٦٧	كليلة ودمنة (حكاية الثور شترية)	دييب الفوضي	٧
٧٧	ألف ليلة وليلة (حكاية مدينة النحاس)	أسوار مدينة النحاس	٨
٨٩	ألف ليلة وليلة (حذاء أبي القاسم الطنبوري)	بلقاسم الطنبوري	٩
٩٩	حكاية جبل نسران (حكايات شعبية المطرية)	نسران وعمى الاتجاهات	١٠
١٠٥	ألف ليلة وليلة (الخياط وزوجته والأهدب)	طاق طاوية	١١
١١٣	المحتويات		



ألف ليلة وليلة

صرخ مستمع من بين جمهور المستمعين مؤكدا أنه ومن معه قد دفعوا مالا ليعرفوا حكاية الثور.. الثور فقط .. لا شأن لهم بالشعلب ولا بالطبل، ولا العلجوم ولا البرغوث ولا الغراب، ولا بالأسد أيضا.

ابتلع الحكواتي ريقه، وخلع نظارته ونهض، حمد الله وأثنى عليه ثم بين لهم أنه لا دخل له في بناء الحكايات.

حكاية كليلة ودمنة هي من حكايات الشعوب التي ترجمها ابن المقفع، المؤلف كتب المترجم وأنا حكيت لكم فما الذي أصنع؟

نهض مستمع آخر فجاء برأي يتوسط فيه بين رأيين، قال: أما بشأن الأسد فهو أمر مهم لمعرفة مصير الثور، بينما تبدو بقية القصص الاعتراضية غير مهمة.



9 786030 528752

